اسم الدرس : تفسير سورة الأنعام | ح٢٣ | الآيات [١٥٠ : ١٥٣]

تصنيف الدرس : مجلس التفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله، والصلاةُ والسَّلامُ على رسول الله -صلّى الله عليه وسلم-.

نستكملُ بإذنِ اللهِ -عزَّ وجلّ- تفسيرَ سورةِ الأنعام.

كُنَّا قد توقّفنا عندَ آيَة (١٥١) سورة الأنعام، صفحة (١٤٨). كُنَّا قد توقَّفنا عندَ قولِ اللهِ -عزَّ وجلَّ-: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}

بعد شوط مُناقشَة أهل الباطِل في مسألة التَّحريم، والخِتام الذي قُلناه الذي ردّ آخِر السُّورَة على أولها.

ومسألة الإشهاد على العقيدَة "ألا تشهَد" كما جاء الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم: {فَإِن شَهِدوا فَلا تَشهَد مَعَهُم}(الأنعام: ١٥٠) لو شَهِدوُا أنَّ مع اللهِ آلِهَةً أُخرَى لا تشهد معهم، والتَّحذير من الوجود في المكان، أن تَشْهَد سواءً أن تكون موجودًا، أو أن تشهَد شهادَة رضى، أو أن تقبَل وجود آلِهَة مع اللهِ -عزَّ وجلَّ- أُخرى، هذا في أول السُّورَة.

وخُتِمَت السورة بأن ترفُض ولو حُكْمًا واحِدًا يُحرَّف من أحكامِ اللهِ -عزَّ وجلَّ-، كما قُلنا بدأت السُّورَة بالعقيدَة، وخُتِمَت بحُكم واحِد من أحكام الشَّريعَة، لكي تعطي صورة مُتَكامِلَة عن الدِّين، وسيأتينا بعد ذلك في خِتام السُّورَة: {قُل إِنَّ صَلاتي وَنُسُكي وَمَحياىَ وَمَماتي لِلَّهِ رَبِّ العالَمينَ}(الأنعام: ١٦٢)، هذا هو التَّصوُّر المتكامِل عن الدِّين الذي يتكوَّن من عقيدة ومن شَريعَة. والفَصْل بينهما إنما هو مِن فعل أهل الباطِل.

وتأمل هذا الاندماج العجيب الذي جاء في سورة الأنعام، كما قُلنا بدأت بالعقيدَة، وخُتِمَت بالشَّريعَة.

والأمر في الشَّريعَة في سورة الأنعام جاء في حُكْم واحِد فقط؛ أنهم أرادوا أن يُحِلُّوا ما حرَّم اللهُ -عزَّ وجلَّ- مِنَ الميْتَة وأن يُحرِّموا ما أحلَّ اللهُ -عزَّ وجلَّ-، وقالوا عن بعض الأنعام والزُّروع: {هذِهِ أَنعامٌ وَحَرثٌ حِجرٌ لا يَطعَمُها إِلّا مَن نَشاءُ بِزَعمِهِم}(الأنعام: ١٣٨) اعتَقَدوا أنهم من يوزع الأرزَاق، فيُوزِّعون الحرث والأنعام كيفما يشاؤون.. بعدما ردَّ عليهُم القُرآن في سياقٍ مُبْهِر ومُعجِز، ووصلوا في

النهاية للحُجَّة الواهِيَة التي يَصِل لها أي إنسان يُغلَب: أنَّهُ يحتجّ بالقَدَر، وقالوا: {لَو شاءَ اللَّهُ ما أَشرَكنا وَلا آباؤُنا}(الأنعام: ١٤٨).. وردَّ عليهُم القُرْآن.

القرآن يقول لهُم: تعالوا أقُل لكم ما هو الحرام وما هو الحلال... دعك من الذي معك، هذا الذي معك بلا معنى، ولن ينفَعَك في دُنيا ولا في آخِرَة، ليس عليك أن تجرَّب المناهِجَ الباطِلَة لكي تتأكَّد أنهم على باطِل.

{قُل تَعالَوا أَتلُ}(الأنعام: ١٥١) ليس من عندي {ما حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيكُم}؛ {تَعالَوا} قيل في معنى "تعالى" في اللغة أي: اصعَد إلى أعلى، قالوا هذا أصل معناها في اللُّغة، تعالى أي إلى أعلى، أنك تتكلم من عُلوّ، وتكلِّمهم ما الذي يُرْضي اللهَ -عزَّ وجلَّ-.

فتقول لهُم: {تَعالَوا أَتلُ} أنا وظيفتي أن أتلو عليكُم ما حرَّمَ اللهُ -عزَّ وجلَّ-.

من وظائف الرَّسول التي جاءت في أكثَر من موضِع من القرآن أنَّ الرَّسول: {يَتلو عَلَيهِم آياتِهِ وَيُزَكّيهِم وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكمَةَ}(آل عمران: ١٦٤).

إذًا من أهمَّ وظائف الدُّعاة إلى اللهِ -عزَّ وجلَّ- تلاوة القُرآن على النَّاس مع توضيح هذه المعاني، فيتزكَّى النَّاس فيُعلِّمونَهُم الشَّرائِع، فالتَّرتيب يكون هكذا: {يَتلو عَلَيهِم آياتِهِ وَيُزَكّيهِم وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكمَةَ}، يتلو عليهم آياتِ القُرآن، ولو كانت هناك فجوة بين النَّاس وبين آياتِ القُرآن نُزيل هذه الفَجوَة، بأن نشرح آياتِ القُرآن، فبالتَّالي النَّاس تتزكّى، ونُفوسُها تَطْهُر بمعاني القُرآن، ثُمَّ بعدَ ذلِك نُعلِّمُهُم الشَّرائِعْ المطلوبَة مِنهُم: {وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكمَةَ}.

فهُنا: {قُل تَعالَوا أَتلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيكُم}(الأنعام: ١٥١) هذا ليس من عندي، هذا من عند الرَّب -سبحانه وتعالى-؛ من ربوبيَّته أنَّهُ يُحرِّم عليكُم أشياءً، هذا لمصلَحَتِكُم. هذه الوصايا لاقَت اعتناء كبيرًا من المفَسِّرين وخاصَّةً من السَّلَف.

هذهِ الوصايا التي جَاءت مُتتاليَة في الثلاث آيات، وكل آية خُتِمَت بقولِ اللهِ -عزَّ وجلَّ-: {ذلِكُم وَصّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم}، الأولى: {تَعقِلونَ}، الثانيَة: {تَذَكَّرونَ}، الثالِثَة: {تَتَّقُونَ}... وقبلها {ذلِكُم وَصاكم به} لذلك سمُّوها الوصايا العَشْر، خمسة وأربعة وواحدة -في ترتيب الآيات- يسمُّونها الوصايا العَشْر.

هذهِ الوصايا لاقَتْ اهتمامًا كبيرًا جدًا من المفَسِّرين، وخاصةً الذي يريد أن يتكلم في العُلوم الاجتماعيَّة التي تربط الناس ببعضهم، أو سنن قيام الدُّوَل وانهيارها، ركز على هذه الوصايا. وقد تكرَّرَ قريبٌ منها في سورَة الإسراء، وكثير من السَّلَف تكلَّم عن هذه الآيات وسمَّاها "الآيات المحْكَمات"، ما معنى المحْكَمات؟

قبل أن ندخل في تفاصيل هذهِ الوصايا [تحريم الشِّرْك، بِرُّ الوالدين، عدم قتل النَّفْس سواء الوَلَد أو النَّفْس التي حرَّمَ الله، تحريم الفوَاحِش، الوفاء بالكيْلِ والميزان، العَدْل في القَوْل: {وَإِذا قُلتُم فَاعدِلوا}(الأنعام: ١٥٢)، عدم اتِّباع البِدَع والشَّهوَات والأهواء، {وَأَنَّ هذا صِراطي مُستَقيمًا فَاتَّبِعوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبيلِهِ}(الأنعام: ١٥٣)، وبعْد كُلِّ واحِدَة: {ذلِكُم وَصّاكُم بِهِ}] هذهِ الوصايا قبلَ أنْ نتناوَلَها بالتَّفصيل لها أهميَّة شديدة؛ كما قُلنا: ابن عبَّاس وغيرُه من السَّلَف قال: "هذهِ المحْكَمات"، وكان بعْض الصَّحابَة وبعض التَّابعين كالإمام علْقَمَة تلميذ ابن مسعود، وكان تلامِذَة ابن مسعود دائمًا يتحرَّجون من الكلام في التَّفسير، فلما كان يطلُب منهُم أحد أن يشرَح شيئًا من القرآن، يقول لهُ: أنا سأشرَح لك الأمور التي ليس فيها أيّ خِلاف، أشرَحْ لكَ المحْكَمات، ويشرَحْ هذه الآيات، يقول له: {قُل تَعالَوا أَتلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيكُم}(الأنعام: ١٥١)، فلما كان يُطلَب من علْقَمَة أن يتكَلَّم بالقرآن كان يشرَحْ هذه الآيات؛ لأنّها مُحْكَمات لا تَتغيَّر.

ما أهميَّة هذا الأمر؟ أهميَّة هذا: من معاني المحْكَمات أنَّها لا تَتغيَّر في أي دين، ولا في أيِّ وضْع، ولا في أيِّ زمان، ولا في أيِّ مكان. هناك أحكام قد تَتغيَّر حسْبِ الأحوال، لكِن هذهِ المحْكَمات التي لا يَصِحّ أن يُسمَّى أي دين دينًا إلا بهذهِ الأحكام.

فهذهِ الأحكام قطعًا في التَّوْراة، وقطعًا أُمِرَ بها مَن كانوا قبلَنا، لذلِك كثير من الذين أسْلَموا من أهل الكِتاب قالوا: هذهِ الآيات كانت -إما بنصِّها أو بمعناها- في التَّوْراة. وبَعضُهُم قال: هذهِ أصلًا من دينِ إبراهيم؛ بدليل قولِ اللهِ -عزَّ وجلَّ- كما سيأتينا في الخِلاف ما بين المفَسِّرين في قولِ الله -عزَّ وجلَّ-:

{ثُمَّ آتَينا موسَى الكِتابَ تَمامًا عَلَى الَّذي أَحسَنَ وَتَفصيلًا لِكُلِّ شَيءٍ}(الأنعام: ١٥٤)-، قالوا: {ثُمَّ آتَينا موسَى الكِتابَ} أي أن هذهِ الآيات كانَتْ مع دِينِ إبراهيم وبعد ذلك تنقَّلها حتى وصلت إلى سيِّدنا موسى، وبعد ذلك أيضًا بلَغَت النبيَّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم.

إذًا من أهميَّة هذهِ الأمور أنَّها مُحْكَمات لا تَتغيَّر في أيِّ دين، أيِّ دين يخلو من هذهِ القواعِد يفْقِد علاقتُه باللهِ -سُبحانَهُ وتعالى-، يفْقِد عمودًا من أعْمِدة قيام الدَّوْلة وقِيَام الحضارَة، لِذَلِك نَجِد من العجيب أنَّ الوصايا العَشْر التي جاءت مُرتَّبَة بهذا التَّرتيب في الأنعام، أو جاءت مُفَرَّقَة بعض التَّفريق في سُورةِ الإسراء، هاتان السُّورَتان مكيَّتان أم مدَنيَّتان؟ مكيَّتان، أي في وقت الاستضعاف أم في وقت التَّمكين؟ في وقت الاستضعاف؛ فهذهِ الأحكام تُطبَّق في أيِّ وقْت حتى لو في زَمن الاستضعاف، وأنَّ الحِرْص والإتقان في تطبيق هذهِ الأحكام هو الذي يؤدِّي إلى بداية تكوين المجتَمَع، هذا الذي يؤدي إلى بدايَة التَّمْكين؛ فالتَّمْكين الحقيقي أن تُطبِّق هذهِ الأوامِر تطبيقًا مُحسنًا فيه، لكي يمُنَّ الله عليك ويُجهِّز لك المجتَمَع حتى يتلَقَّى الشَّريعة.

وما هو التَّمكين غير مُجتَمع تُطبَّق فيهِ الشَّريعَة! هذا هو التَّمكين، التَّمكين ببسَاطَة أن تكون لدى المجتَمَع القُدْرَة على أن يتلقَّى تطبيق الأحكام الشَّرعيَّة، وأنتَ مُمَكَّن في تطبيق الشَّريعة لا مُمَكَّنٌ من رؤوس النَّاس! أنتَ مُمَكَّن من قُلوب النَّاس، فالتَّمكين حقيقةً وجود مُجْتَمَع أنتَ قادِر فيه أن تُطبِّق أحكام الشَّريعَة، وإن كان فيه نِفاق، تكون قادرًا على أن تمنَع هذا النِّفاق وتمنَع الكُفْر وتنشُر الدِّين، هذا هو التَّمكين في الأَرْض.

إذًا هذهِ الأوامِر،-والعَجيب والمهمّ الذي يخْفَى على كثيرٍ من النّاس أنها بدأت بالتَّوْحيد، بدأت بمنْع الشرك-، قبل أن نتكلَّم في معاني العَدْل ومعاني الإحسان، ومعاني برّ الوالدين، بالرَّغْم أنها أعمِدَة مُهمَّة مِنْ أعمدة قيَام أيِّ مُجتَمع، لكِن يجب أن نقول أنَّ كل هذا لا يُفيد دون ماذا؟ دون التَّوْحيد، يجب أولًا أن يقوم المجتَمَع على توْحيد اللهِ -عزَّ وجلَّ-.

لذلك النبي صلى الله عليه وسلَّم لو كان دعا إلى هذهِ الأشياء فَقَط، دون التَّوْحيد كان من الممكِن أن يُقْبَل ولا يُعارَض، أي كان من الممكن أن نقوم بإلغاء أول عمود فقط {أَلّا تُشرِكوا بِهِ شَيئًا}، ويقول: {وَبِالوالِدَينِ إِحسانًا وَلا تَقتُلوا أَولادَكُم مِن إِملاقٍ نَحنُ نَرزُقُكُم وَإِيّاهُم وَلا تَقرَبُوا الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنها

وَما بَطَنَ وَلا تَقتُلُوا النَّفسَ الَّتي حَرَّمَ اللَّهُ}، و{وَأَوفُوا الكَيلَ وَالميزانَ}، {وَإِذا قُلتُم فَاعدِلوا} ويقول هذه الآيات... كان من الممكن أن يُقبَل منهُ هذا الكَلام، لكِن عندما قال لهم: أنَّ كلّ هذا في إطار التَّوْحيد، وأنَّ هذه طاعَة تُحاسَبونَ عليها ثُمَّ تُبعَثون، لِتُحاسَبوا عليْها؛ رفضوا وقالوا: لا، نحن عندنا آلِهَة أُخرَى، وعندنا مصالِح أخرى ورفَضوا.

فهو لم يبدأ بالبداية كمُصلِح اجتماعي فَقَط؛ بل بدأ أولًا بأنَّه جاءَ بدينٍ من عندِ اللهِ -عزَّ وجَلَّ-، هذه الأوامِر، وهذا واقِع الكلام الذي سأقوله؛ أيّ مُجتَمع سيُطبِّق هذه الأوامر سيَنهَض، أيّ مُجتَمَع كان مُنهارًا حضاريًّا سيحافظ على هذه الأشياء قطعًا سيَنهَض، كان من المُمكِن أن يقول لهم هذا: أنا جئت لكم بخيْر عظيم، المجتَمع المهلهَل العربي الذي نحن فيه، هناك حضارات فارِس والرُّوم هذه، هيَّا دعونا نَلحَق بالرَّكْب ونسبق فارِس والرُّوم! كان من الممكِن أن يبدأ هكذا، لكِن قال لهُم في البداية: (لا إلهَ إلا اللَّه)؛ لن أتَخلَّى عن هذه البِداية، لن أتخلَّى عن بِداية التَّوْحيد (لا إلهَ إلا اللَّه).

فقال لهُم: هذهِ الأشياء ليسَت مِن عِندي: {قُل تَعالَوا أَتلُ}(الأنعام: ١٥١) ماذا؟ {ما حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيكُم}، إذًا النقطة الأولى أن هذه من المحْكَمات.

النُّقطة الثانية: -وهي فرع من المحكَمات-؛ أنَّه لا ينبغي للعاملين لدينِ اللهِ -عزَّ وجلَّ- أن يُساوِموا أو يُسَاوَموا على هذهِ الأمور، بمعنى: الإحسان، والعَدْل، والوقوف بجانِب المظلوم، وعدَم الاقتراب من مال اليَتيم، والوَرَع في التَّعامُل مع الأموال، والدِّقَّة في التَّعامل في الأموال، هذهِ الأمور أخلاق ثابتَة وليست أخلاقًا نسبيَّة مُتَغيِّرَة...

بمعنى: لو أنَّ العامِلين لدينِ اللهِ -عزَّ وجلَّ- جاء نِظام سياسي يضَّطرُّهُم إما أن يتَخلُّوا عن بَعض هذهِ الأمور، أو جاء نظام اجتماعي، أو نظام اقتصادي، وطالَب العامِلون لدينِ الله أن يلْتَحِقوا بهذا النِّظام لكي يُغيِّروه ويأتوا بالتَّمْكين ولكِن بشَرط أن يتخلَّى إما عن التَّوْحيد أو أنه من الممكن أن نأكُل مال اليَتيم لا مشكلة، أو ليس شرطًا أنَّ كُلّ الكلام الذي سنقوله سيكون عَدْلًا، {وَإِذا قُلتُم فَاعدِلوا}(الأنعام: ١٥٢)، من الممكن أن تكذب لا مشكلة، أيّ نِظام سينخرِط فيه العامِلون لدينِ اللهِ -عزَّ وجلَّ- ويتَخلُّوا عن أصل من هذهِ الأُصول لن يحدُث تَمْكين، هذهِ الأصول أُصول ثابِتَة، المساوَمَة عليْها تؤدي إلى الرُّجوع عليك بالانهيار، ستعود عليك بالبُطْلان، هذه أُصول ثابِتَة، الذي سيقوم بتطبيقها بشكل حسن وهو في الاستضعاف هو الذي سيُمكَّن.

وهذا أحَد معاني قول اللهِ -عزَّ وجلَّ- بعدها: {ثُمَّ آتَينا موسَى الكِتابَ تَمامًا عَلَى الَّذي أَحسَنَ}(الأنعام: ١٥٤) أي: أحسَنَ في تطبيقِ هذهِ الأحكام، لما كان مُحسِنًا في تطبيق هذهِ الأحكام منَّ اللهُ -عزَّ وجلَّ- عليهِ بالتَّمكين، -وسنقول إحدى معاني الكِتاب في تفسير الآيَة القادمة-.

إذًا هناك معانٍ لا يمكن أن تُساوَم عليها، ولا أن تُساوِم عليها، ولا أن تتخلَّى عنها، هذه معانٍ ثابتة، معانٍ في الفِطرَة، الفِطرَة الإنسانيَّة تُعظِّم وتُقدِّس الذي يُطبِّق هذهِ الأمور، حتى لو عارضته، حتَّى لو خالفته، والفِطْرَة الإنسانيَّة تُحقِّر كُل من يُخالِف هذهِ الأمور، هي بداخِلَها أنَّ الذي يظلِم، والذي لا يعدل في القوْل، والذي لا يقف بجانب المظلوم، وأنَّ الذي يأكل مال اليَتيم، بداخِل أيِّ إنسان احتقار لمن يتخلَّى عن هذهِ الأشياء، فأي منظومة ستدخُل فيها ستتخلَّى عن هذهِ الأشياء أنت تخسَر النَّاس قطعًا، وقبلها تخسَر معيَّةَ اللهِ -سُبحانَهُ وتعالى-.

إذًا أي نظام سياسي عالَمي يُوضع وفيه تخلٍّ عن هذهِ الأصول لا بُدَّ أن يُرفَض، ولو أن طائفَة دخلِت فيه من باب النزول على قول بعض العُلماء الذين رأوا من باب المصالح والمفاسد أن يدخلوا في هذا النِّظام، لا بُدَّ أن تظلَّ طائفَة لا تتلبَّس بهذا النِّظام، تُبيِّن عوَار هذا النِّظام، وتقول الحق؛ مثل الديمقراطيَّة -إذا تلبَّس بها بعض النّاس- لأن الديمقراطية لا تراعي كل شيء، لا تراعي العَدْل الكامِل، لأن العَدل غير المساواة؛ العَدل في توزيع الميراث غير المساواة في توزيع الميراث، العَدل هو ما أمَرَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- بهِ أن يُعطى، هذا هو العَدل، فالمساواة التَّامَّة في كُلِّ شيءٍ ليسَت عدْلًا، أن تساوي بين المختَلِفين أصلًا هذا ليسَ عَدْلًا، المساواة في توْزيع الحُقوق -أنّ يأخذ كُلَّ أحد أي شيء في المجتمع- هذا سَفَه، قال الله تعالى: {وَلا تُؤتُوا السُّفَهاءَ أَموالَكُمُ}(النساء: ٥) كيف لثُلَّة من النَّاس لا تَفقَه شيئًا أن تَتَحكَّم في مصير هذا وذاك؟!

ومن معاني الديمقراطيَّة أنها بأصواتها تَتَحكَّم في مصيرِ دَوْلَة، وهي لا تَفقَه شيئًا في أي شيء، كيف ذلك؟! هذا سَفَه كما قال رَبُّنا: {وَلا تُؤتُوا السُّفَهاءَ أَموالَكُمُ}، فبالتَّالي وَلَا تُؤتوا السُّفَهاءَ أصواتَكُم - نفس المعنى- إذًا مِنَ السَّفاهَة إعطاء الحَقّ لمن لا يَستَحِقّ، هذا سفه.

قبلها: {وَلا تُؤتُوا السُّفَهاءَ أَموالَكُمُ الَّتي جَعَلَ اللَّهُ لَكُم قِيامًا}

معنى الآية أصلًا -في أحَدِ الأقوال- من الممكِن أن يكون مالُه لكنَّه سفيه فلا يأخذه، ولَكِن سمَّاهُ اللهُ {أَموالَكُمُ} لأنَّ المال من المفروض أن نحافِظ عليه جميعًا، هذا أحَد معاني هذهِ الآية في سورَةِ النِّساء.

الشَّاهِد: هذهِ هي الأعمِدَة التي يقوم عليها أيّ مُجْتَمَع، لذلك سورة الأنعام وسورَة الإسراء من البُشرَيات بمجيء تمكين؛ نزول هذهِ التَّشريعات ومحافظتنا عليها، إذًا الله سيُمكِّن لنا مُجتَمَعًا تُطبَّق فيه الشَّريعَة كامِلَة، فهذه هي الأُصول التي تُهيِّئ المجتَمَع لتطبيق الشَّريعَة التَّفْصيليَّة.

المشكِلَة أنَّ المجتَمَع أحيانًا يحتاج تمهيدًا نفسيًا وتمهيدًا عَقليًا لكي يصبح أولًا مُجتَمَعًا سويًّا، وبعد ذلك يتَلَقَّى الشَّريعَة، إنما مُجتَمَع تربّى على عَقليَّة الكَيد مثلًا، أنَّهم يكيدون لبعضهم البعض، مُجتَمَع تربَّى على عقليَّة "أهلاوي وزملكاوي"، لا بد أن يكون أهلاويًا مهما حدث، خسر أم ربح، أو يكون زملكاويًا، تربّى على هذهِ النَّفسيَّة، هو يحتاج أولًا تمهيدًا لأخلاق مُعيَّنَة تتربَّى فيه، وطول مُكْث، لتأصيل هذهِ الأخلاق، ثُمَّ تُطرَح هذهِ الشَّريعَة فيَتَقَبَّلْها، وهذا من الشَّريعَة أيضًا، لكِن أقصِد أن تُطْرَح عليه أصول الإحسان، العَدْل، برّ الوالدين.. إلخ.

أيضًا من أهميَّة هذهِ الأوامِر أنَّها من الأوامر التي نتحرَّك بها في المجْتَمَع المكِّي المستَضعَف، لذلِك لو سنقوم بقياس أيّ مُجتَمع فنجده شبيهًا بالمجتَمَع المكِّي المستَضعَف، ما هي الأوامِر التي نتكلم فيها مع النَّاس؟ ليس الوَعظ فقط، بل نُكلِّم النّاس في برِّ الوالدين، نكلِّم النّاس في الإحسان، نكلِّم النّاس في العَدْل، في الميزان، في الكيْلِ، الوفاء بالكيلِ والميزان، هذهِ المعاني التي تنتشر في الواقِع المكِّي، التي أصرَّ عليها القُرآن؛ الحَضّ على طعامِ المِسكين، العَدْل، هذه أوامِر، فعندما نرى واقِعًا ليس فيه شريعَة تُنَفذ، واقِع مُستَضعَف ونريد أن نستفيد من هذه الآيات يجب أن نتكلَّم مع النَّاس في هذهِ الأشياء.

كثير من الناس قد لا ينتبه لموضوع برِّ الوالدين مثلًا، فإذا تكلّمت عنه يقول: نحن في واقِع مُستَضعَف ونريد تمكينًا، دعنا نتكَلّم في همِّ الدِّين والوَعظ فقَط! لا؛ أنت يجب أن تُؤصِّل هذهِ الأخلاق.

هِرَقل من الأسئلَة التي سألَها لأبي سُفيان لكي يعرف أن هذا المبعوث نبيٌّ أم لا -صلى اللهُ عليهِ وسلَّم- سأَلُه عن الأخلاق، سأَلُه عن المعامَلات، سأَلُه عن أشياء أتى بِها، سأَلُه عن الجِهاد، سأَلُه عن الحَرْب؛ قال: هَل يَغدِر؟ عندما قال لُه: لا، قال له: هذا نبيّ.

إذًا من الأشياء التي تُمَكِّن لك في قُلوبِ النَّاس تطبيق هذهِ الأخلاق، أن يكون إنسانٌ عامِلٌ لدينِ الله أو يريد أن ينصُر دين اللهِ -عزَّ وجلَّ- ولا يتعامَل بهذهِ الأخلاق، من برِّ والدين، وإحسان في المعامَلَة، والعَدْل، وأن يقول بالحَق ولو على أقربائه، لو لم يقم بهذهِ الأشياء لن يحدُث لهُ تَمكين، سيظل تمكينًا وهميًّا.

إذًا الشَّاهِد أنَّ هذه القضايا، هذه الوصايا العَشْر استحوذَت على كثير من عُقول المفسِّرين، بل الذين كتبوا في مقاصِد الشَّريعَة توقَّفوا كثيرًا -كالإمام ابن عاشور- توقَّفَ كثيرًا عند هذهِ الآيات، وحاول أن يحصُر المقاصِد التي حصرَتْها هذهِ الآيات، يقول: لأنها تتكلَّم عن أصولِ الدِّين الذي تتفرّع منه كُلّ الأحكَام بعد ذلك، قالوا: جاءَت "لحِفْظ الدِّين، ولحِفْظِ النَّفْس، ولحِفْظِ النَّسل، ولحِفْظِ العَقْل، ولحِفْظِ المال".

فحين تتأمل هذهِ الوصايا، وكيف توزعت هكذا، وأنَّ الوصايا الخَمْس الأُوَل تنظِّم شيئًا مُعيَّنًا في المجتَمَع، والوصايا الأَرْبَع الأُخَر تُنَظِّم شيئًا آخر في المجتَمَع، والوصيَّة الأخيرة الخاتِمَة تصنع سِيَاجًا للمُجْتَمَع يحفَظُه.

إذًا هذهِ الآيات تحتاج دروسًا، كُتِبَت فيها كُتُب تُفصِّل وتُؤصِّل في هذهِ الوصايا العَشْر التي لن يقوم ولن تَكون أي قومَة لمجتَمَع دون تطبيق هذهِ الوصايا، فجاء الخِتام بها في سورَة الأنعام، بعد البدايَة بالعَقيدة، والخَتْم بالشَّريعَة، هذه أصول الشَّريعَة يجب تطبيقها، لأجل أن تأتي في النهاية وتقول: {إِنَّ صَلاتي وَنُسُكي}(الأنعام: ١٦٢) الجُزء التَّعبُّدي، {وَمَحياي وَمَماتي} الجُزْء الحياتي، كُلّ هذا: {لِلَّهِ رَبِّ العالَمينَ}.

وتلاحظ أن هذهِ الوصايا كما أنَّها اشتمَلَت على التَّوْحيد وعلى العَقيدَة اشتَمَلَت على التَّشريع والمعامَلات، لم تفصل بين الاثنين، وُضعت العَقيدَة بجانب الشَّريعَة، وضعت اعتقادَك في دينِ الله -عزَّ وجلَّ- بجانب مُعامَلاتَك للنَّاس.

نبدأ مع تفصيل هذهِ الأوامر:

{قُل تَعالَوا أَتلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيكُم}(الأنعام: ١٥١)...

رقَم واحِد وبَدَأ به: {ألّا تُشركوا بِهِ شَيئًا}؛ سنَجِد أن الوصايا الخَمْس الأُوَل كُلَّها جاءت بالنَّهيْ، {ألّا تُشركوا}، {لا تَقتُلوا}، {لا تقرَبُوا}، {لا تقتُلُوا النَّفسَ}، ما عدا واحدة وهي: {وَبِالوالِدَينِ إحسانًا}، سنقول هنا لماذا لم تأتِ "ولا تَعُقُّوا الولِدَيْن" حتى تكون كُلَّها بنفس سياق النهي؟

الوصية الأولى:- {ألّا تُشركوا بِهِ شَيئًا} كما قُلنا: الذي يبدأ برقم اثنين مباشرة قبل الدَّعوَة إلى التَّوْحيد سيخسَر، الذي يبدأ الحديث مع النَّاس عن إصلاح الدُّنيا قبل إصلاح الدِّين ليس هذا الذي يرتضيه الله، ليس هذا هو الخِطاب القرآني السَّليم، هذا يَحيد عن الوِجْهَة الأساسيَّة، الذي يعتَقِد أن تجاوز الكلام عن التَّوْحيد، لكي يقترب للنَّاس حتى يكسبهم فقط، وبعد ذلك يعود ليُكلّمهم عن التَّوْحيد هو واهِم، وتكلمنا عن هذا الموضوع خلال السورَة.

{قُل تَعالَوا أَتلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيكُم}رقَم واحِد: {أَلّا تُشرِكوا بِهِ شَيئًا} بمَعنَى: أن التَّشريعات التي أنتم شرعتموها، التي مضت هذه، يجب أن تُلقوها في القمامة، ليس لها أي قيمَة، إنما الذي أنت تتَلقَّاه وتُعظِّمُه هو كلام الله –سُبحانَهُ وتعالى–، فلا تُشرِك بهِ شيئًا في التَّشريع، وخاصَّةً في الأطعِمة، مثلما سبق في سياق السورة.

الوصية الثانية:- {وَبِالوالِدَينِ إِحسانًا}، قالوا كان من المتَوَقَّع أن يأتي السِّيَاق مثل بقيّة الأوامر "ولا تَعُقُّوا الوالِدَيْن" {وَلا تَقتُلوا أَولادَكُم مِن إِملاقٍ} {وَلا تَقرَبُوا الفَواحِشَ} {وَلا تَقتُلُوا النَّفسَ} لماذا لم يقل الله "ولا تَعُقُّوا الوالِدَيْن"؟؛ لأنَّ الأمر في الوالِدين أكبَر من أن يكون مجرد النَّهيْ عن العُقوق، فالوالدان لهم مُعاملَة خاصَّة، أي لو قال الله: "ولا تَعُقُّوا الوالِدَيْن"، فما المطلوب منك؟ ألّا تضايقهم، فأنت إن لم تضايقهم وإن لم تحسن إليهم فأنت طبّقت الأمر، لكن ليس هذا هو المطلوب، المطلوب أن تُحسِن إليهم: {وَبِالوالِدَينِ إِحسانًا}.

قالوا معنى الآية: "وأحسِنوا بالوالديْنِ إحسانًا" أي أتقِن في الإحسان، "إحسانًا" هنا مفعول مُطلَق لفِعل محذوف، أي إحسانًا مُطلَقًا إلى ما لا نهاية، إحسان مُطلَق، خالي من أي عوارض إلا العوارِض التي جاءت في القرآن: {وَإِن جاهَداكَ عَلى أَن تُشرِكَ بي ما لَيسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ فلا تطعهماْ}(لقمان: ١٥).

إذًا إحسانًا مُطلَقًا؛ لذلِك هنا من دِقَّة السِّياق القُرآني أنَّ الله لم يقل: "ولا تَعُقُّوا الوالِدَيْن" بل قال {وَبِالوالِدَينِ إِحسانًا}(الأنعام: ١٥١)؛ لأنه لو جاء النَّهيْ عن العُقوق فماذا يمكِن أن تقول؟ الحمدلله، أنا لا أؤذيهم... لا، ليس هذا هو المطلوب، أنت لو لم تؤذهم ولم تحسن إليهم، فأنت مُقصِّر.

دائمًا ربط {وَبِالوالِدَينِ إِحسانًا} مع التَّوْحيد... الفِطرَة الإنسانيَّة ثابتَة، الفِطرَة التي تُقدِّر النِّعمَة للأشخاص، تُقدِّرها لله، والفِطْرَة التي تُقدِّر نِعمَةَ الله تُقدِّر النِّعمَة للنّاس، الذي انتَكَست فطرتُه مع أبيه وأمُّه، بالطبع ستنتَكِس معَ الله، (من لم يشكرِ الناسَ لم يشكرِ الله)[1]، الذي لا يشكر النَّاس كأنَّه لا يشكر الله؛ لأنَّ الله هو الذي أرسل له النِّعمَة، وأيضًا لن يشكُر الله؛ لأنه في فِطرتِه أصبح جاحِدًا للنِّعَمْ، فمُنكِر فضل والديه عليه، هذا الشَّخص، فِطرَتُهُ مُنتَكِسَة، لا يصلح أن يقوم عليه مُجتَمَع أبدًا، ولا تطمئن له، مهما كان ذكيًّا ومهما كان عبقريًّا، لا تطمئن له، هذا من الممكن أن يُخرِّب أي مُجتَمَع، هذا العُنْصُر عُنصُر جاحِد للنِّعَم، لا تطمئن له أبدًا، الذي يُنكِر نِعَم الله -عزَّ وجلَّ- عليه أولًا في التوحيد وعدم الشرك، ثُمَّ يُنكِر نِعَم الوالدين عليه، هذا لا يُطمأن إليه أبدًا {وَبِالوالِدَينِ إِحسانًا}

ثم السِّياق أصبح بعد الوالدين معَ الأبناء، مع الوالدين تُحسِن إليهُم، ومعَ الأبناء، {وَلا تَقتُلوا أَولادَكُم مِن إِملاقٍ}(الأنعام: ١٥١) نجِد هنا تركيزًا على الأُسرَة.

الدُّول المسلِمَة الآن هي الآن الدُّوَل الوَحيدة التي تحافِظ على الأُسرَة، دُوَل الغرب والشَّرْق الآن الأسْرَة عندها مُهلْهلَة، وتجِد عندهم حملات لأهميةِ الأسرَة واستعادتها.

لا توجد أُسرَة، قد ترى شخصًا يتزوج امرأة وعندهُم طفلان يوم الزفاف.. الزنا قبل الزواج، معهم طفلان فقالوا: يمكننا أن نتزوج الآن، اكتشفنا أنّه من الممكن أن نتزوَّج، هذا وارد عندهم، هذا هناك طبيعي. فأصبَحت الأُسرَة مُهلْهَلَة، الابن له سن معيَّن ويترك البيت، علاقة مُهلهلة تمامًا.

---

١ عن النعمان بن بشير: من لم يشكرِ القليلَ لم يشكرِ الكثيرَ، ومن لم يشكرِ الناسَ، لم يشكرِ اللهَ، والتحدُّثُ بنعمةِ اللهِ شكرٌ، وتركُها كفرٌ، والجماعةُ رحمةٌ، والفُرقةُ عذابٌ.

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الترغيب ٩٧٦ •حسن صحيح •أخرجه عبدالله بن أحمد في «زوائد المسند» (١٨٤٤٩) واللفظ له، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (٦٤)، والبزار (٣٢٨٢).

أحَد الإخوَة كان في سَفَر في دَوْلَة أوروبيَّة، يحكي أنَّه كان في مطعَم، هو وأخوه ووالدُه، جالسين مع مجموعة من الأوروبيين الأجانب، في نقاشات عمل -عمل دنيوي- فبعد أن انتهى الاجتماع قام أخُ صديقي -الذي يحكي لي-، قام يحاسِب لمن؟ لأخيه ولوالدُه، فقام معه أحد الأوربيين يقول له: ما هذا؟ ماذا تفعل؟ لماذا تحاسب لوالدك؟ أليس من المفترض أن يحاسب كل شخص لنفسه، قال له: هذا والدي، قال له: وما المشكلة؟ هو مُتعجب كيف هذا؟! المفترض عنده أنهم منفصلون، أنت وصلت سنًّا معينة فلا سُلْطَة له عليك، ممنوع أن يقول لك كذا، الأُسرَة مُهلهَلَة مُفكَّكَة تمامًا، وهذا عمود أي مُجتَمَع.

ومن المعاني التي قيلت في سورة الطَّلاق أنها تناولت في الجزء الأول الطَّلاق، وفي الجُزء الثاني: {وَكَأَيِّن مِن قَرِيَةٍ عَتَت عَن أَمرِ رَبِّها وَرُسُلِهِ فَحاسَبناها حِسابًا شَديدًا وَعَذَّبناها عَذابًا نُكرًا}(الطلاق: ٨) قالوا: النِّصف الأول من السُّورَة وقوع وهلاك الأُسَر، النِّصف الثَّاني من السُّورَة وقوع وهلاك الأمم، فالأسرة عندما تسقُط وتتهلهل، فالأُمَّة لن تستمر، حتى لو استمرَّت فترة طويلة نتيجة عوامِل أُخرى فحتمًا هذا المجتَمَع سينهار، فبداية المجتَمَع المسلِم يبدأ من الحِفاظ على الأُسرَة، أن يبقى هناك تداخُل وترابُط أُسَري قوي جدًا. فبالنِّسبَة للوالدين: {وَبِالوالِدَينِ إِحسانًا}(الأنعام: ١٥١)، وبالنِّسبَة للأبناء: {وَلا تَقتُلوا أَولادَكُم مِن إِملاقٍ نَحنُ نَرزُقُكُم وَإِيّاهُم}، {تَقتُلوا أَولادَكُم مِن إِملاقٍ} قالوا: المَلَق: الحِجارَة الملساء، فكلمة: {مِن إِملاقٍ} بالعامية المصرية "على البلاطَة" و بتعبير العَرَب: "على الحجارَة"، ليس لديه شيء، لا يجلس على الحصير، لا يوجد حصير، يجلس على الحِجارَة المْلساء، ليس عنده ما يفرشه على الحجارة، فكلمة: {مِن إِملاقٍ}، أي حتى لو وصلت إلى هذهِ الحالَة مِنَ الفَقْر {لا تَقتُلوا أَولادَكُم}.

قالوا: "لم يبقَ لهُ إلا المَلَقات" كما قال الإمام الشَّوْكاني: المَلَقات التي هي الحِجارَة المْلساء التي هي بتعبيرنا مثلما قال الدكتور حسن جمال في كتابِه الذي شرَح فيه ألفاظ القرآن، قال: بتعبيرنا المعاصِر هذه تساوي عند العَرَب "على البلاطَة".

{وَلا تَقتُلوا أَولادَكُم مِن إِملاقٍ} "من إملاق" يعني أنت في هذه اللحظة فقير، ورزَقَك الله ولَدًا، الأمر أنك رُزِقتَ الوَلدْ، لا تقتُلْهُ، لا تذهب وتئِد البِنْت، لا تقْتُلْهُا، لماذا؟ الذي رزَقَك سيرزُقُه.

بدأت هنا في الأنعام {نَحنُ نَرزُقُكُم}، غير ما ورد في الإسراء: {نَحنُ نَرزُقُهُم}(الإسراء: ٣١) هو ليس فقيرًا، في سورَة الإسراء: {وَلا تَقتُلوا أَولادَكُم خشية إملاق} يخاف أن يصبح فقيرًا، فقال الله تعالى له: أنت خائف من أن يصبح الولد سببًا للفَقْر؟ أنا سأرزُقُهُ وإيَّاك: {نَحنُ نَرزُقُهُم وَإِيّاكُم}، هُنا هو يقتله لأنّه أصلًا فقير، ليس خائفًا من الفَقْر، فهذه الآية أشدّ، هو أصلًا فقير، فيقول الله له: {نَحنُ نَرزُقُكُم} كما رزقتَك من قَبْل، سأرزُقه، {نَحنُ نَرزُقُكُم وَإِيّاهُم}(الأنعام: ١٥١).

{وَلا تَقرَبُوا الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنها وَما بَطَنَ وَلا تَقتُلُوا النَّفسَ الَّتي حَرَّمَ اللَّهُ إِلّا بِالحَقِّ}(الأنعام: ١٥١) نجِد أنَّ هذه هي الأُصول العامَّة للمُجتَمَع، لم تتكلم على المعامَلات التَّفصيليَّة، تكلّمت عن شيئين، عن الأُصول العامَّة: التَّوْحيد، وتكلمت عن الأُسرَة، تكلمت في الأصول العامَّة.

تأتي الآية بعدها تتكلّم على نظام المعاملات، وتحديدًا المعامَلات الماليَّة، المعامَلات الاجتماعيَّة، أتت بمُعظَم المعامَلات الاجتماعيَّة، وتحديدًا ركزت على المعاملات الماديَّة والماليَّة بين النَّاس، فانظر كيف يُبنى المجتَمَع، أولًا التَّوْحيد: الأُمور العامَّة، نتكلم في ماذا؟ نُكلِّم النَّاس عنّ التَّوْحيد وأن تُحسِن لمن أحسَن إليك: الوالدين، الرَّزَّاق هوَ الله: {وَلا تَقتُلوا أَولادَكُم مِن إِملاقٍ}، البُعد عن الفواحِش تمامًا، النَّفس البَشريَّة تتبرأ من الفواحِش، لو أُتُّهِم شخص بفاحِشَة حتَّى لو هو -والعياذُ بالله- يسقُط فيها يقول لك: لا لست أنا، أي كما يُقال "كَفَى بالعِلْمِ فخرًا أن يَدَّعيهِ كُلُّ أحَدْ" كل واحد يقول لك: أنا عندي عِلْم، فهذا أكيد شيء طيب، عكسها : "وكَفَى بالفُحْشِ ذمًّا أن النَّاس كلها تتبرَّأ منهُ".

عندما تكلّم الله عن الفواحِش ماذا قال؟ قال: {وَلا تَقرَبُوا الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنها وَما بَطَنَ} ولم يقل "ولا تَقْرَبوا القَتْل" ماذا قال بعدها؟ {وَلا تَقتُلُوا النَّفسَ}.. إذًا هناك نواهٍ قال: {ولا تَقْرَبوا} ونوَاهٍ جاءت مُباشرةً.

النَّواهي التي جَاءت بكلمة "ولا تَقْرَبوا" جاءت مع الفواحِش ومع مالَ اليَتيم، في شهوَة الفَرْج، وشهوة المال، فهؤلاء دائمًا يجب أن يكون بينك وبينهُم حاجِز: {وَلا تَقرَبُوا الفَواحِشَ} سواء الزِّنا أو مُقدِّمات الزِّنا أو حتَّى الكَلام البذيء، كُلّ هذا لا تقترِب منهُ ليس فقط لا تفعله، وإنما لا تقترِب منهُ، ماذا يعني "لا تقترِب منهُ"؟ أي عندما تُوضع مثلًا أشياء عسكريَّة أو مُفاعِل نوَوي؛ تجد لوحة ((ممنوع الاقتراب))

موضوعة على بُعْد، بل قد تجدها على بُعد مثلًا عشرَة كيلو في الأشياء الخطيرة جدًا، أو في الأشياء البسيطة تجد مثلًا مائة متر أو عشرَة أمتار، فعلى حسب ضخامة الشيء يجب الابتعاد عنهُ.

فهُنا يقول الله لك اجعل هناك مساحَة –حتى لو مِنَ المباحات– بعيدة بينَك وبيْن هذهِ الفواحِش {ما ظَهَرَ مِنها وَما بَطَنَ}، هناك أشياء لا يعلَمها إلا الله –عزَّ وجلّ–، نعوذُ باللهِ من ذلِك، نسألُ اللهَ –عزَّ وجلَّ– أن يُطهِّرَ قلوبنا، هناك أشياء مختبئة في القَلْب فلا تقترب منها، {وَلا تَقرَبُوا الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنها وَما بَطَنَ} ابن عبَّاس قال في تفسير هذه الآية "ما ظَهَر" أنَّ الزِّنا كان موجودًا في جزيرة العرَب على نوعين، زِنا علانيَة، الرَّايات التي تُرفَع على البيوت ومعروف أنّ هذه –والعياذُ بالله– بيوت للزِّنا، وكان هناك الزِّنا سرًا، فكانت العرَب تأنَف –أصحاب المكانَة يأنَفون– أن يذهبوا للزِّنا العلانيَة، لكنَّه يقول: ليس هناك مشكلة إن كان الزنا سرًّا.

وتكلمنا في مسألة جاءت قبل ذلك معنا، مسألة أن عقول البَشر مثل القوانين الوضعيَّة من الممكن أن تُحِلّ الزِّنا سِرًّا بشروط مُعيَّنَة مثل ألّا يكون في بيت الزَّوجيَّة، وأن يكون بتراضي الطَّرفين، ولا تقوم دعوى من إحدى الزوجين على الآخر، فهذه العُقول البشريَّة عندما تصل لأن تضع قانونًا، تجِدُه قِمَّة في الضَّلال، {وَلا تَقرَبُوا الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنها وَما بَطَنَ وَلا تَقتُلُوا النَّفسَ الَّتي حَرَّمَ اللَّهُ إِلّا بِالحَقِّ} الآية واضحَة.

وهُنا أيضًا العَجيب في سياق الآيات الاستثناءات والإحاطة بدقائق الأمر؛ فعندما قال رَبُنا: {وَلا تَقرَبُوا الفَواحِشَ} قال: {مَا ظَهَرَ مِنها وَما بَطَنَ}، لكيلا يعتقد أحد أنَّ الفواحِش هي فقط الزِّنا، لا، حتى الأشياء الخفيَّة لا تقترب منها.

وعندما قال: {وَلا تَقتُلُوا النَّفسَ} قال: لا، قد تقتل بعض النُّفوس ولكِن بالحق.

وعندما قال: {وَلا تَقرَبوا مالَ اليَتيمِ} جاءت: {إِلّا بِالَّتي هِيَ أَحسَنُ}

وعندما قال: {وَأَوفُوا الكَيلَ وَالميزانَ} قال: {لا نُكَلِّفُ نَفسًا إِلّا وُسعَها}

وعندما قال: {وَإِذا قُلتُم فَاعدِلوا} قال: {وَلَو كانَ ذا قُربى}

فكل أمر من الأوامِر له شيء يفصَّلُه ويوضَّحُه بدقة.. وهذا يعني أن الأوامِر عندما تُقال، عليك أن تضع لها الضَّوابِط الخاصة بها والمعايير، وكيف تُطبَّق والآليات، والاستثناءات التي من الممكن أن تقولها، فعندما قال الله: {وَلا تَقْتُلُوا النَّفسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ} قال هُناك بعض الأنفُس التي قد تُقتَل، وذَكَروا منها: المرتَدّ إجماعًا يُقتَل، والزَّاني المحصَن يُقتَل، هذا إجماع، ليس فيه خلاف... وهناك غيرها.

وذكَر المفسِّرون هُنا الحقّ الذي يُوجِب ذلِك، لكن في المجتَمَع المكِّي -في المجتَمَع المستَضعَف- تُرِكَت هكذا مجملة، أغلَب هذه الأشياء كانت لم تُشرَّع بعد، فكأنّ هذا الاستثناء جاء مجملًا هنا لأنَّه سيأتي في المدينة التَّشريع الذي يقول فُلان يُقتَل لأنَّه مُرتَدّ أو لأنَّه زانٍ مُحصَن.

فيأتي من يقول أنتم قلتم في مكة بعدم قتل النَّفس، فنقول له لا،ماذا قُلنا في مكة -زمن الاستضعاف-؟ {وَلا تَقْتُلُوا النَّفسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلّا بِالحَقِّ}(الأنعام: ١٥١)، أنا في مكَّة قُلت: {إِلّا بِالحَقِّ} وهذا هو الحق الذي أتى به الله -عزَّ وجلّ-.

{ذلِكُم وَصّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَعقِلونَ} تِكرار الأوامِر بأُسلوب الوَصيَّة: تعني أنها جاءَت لمن قبلنا ومُستَمِرَّة إلى يوم القيامة، أي أنَّ هذا يؤكِّد القوْل المروِي عن ابنِ عبَّاس: أنَّها من المحْكَمات التي لم تُبَدَّل في أيِّ دين... من دينِ إبراهيم لم تُبدَّل، هُناك أشياء نُسِخَت، هُناك أحكام كانت موجودة في اليَهوديَّة ونسخها الإسلام، كأشياء في الأطعِمَة، لكِن هُنا هذهِ من الوصايا المحْكَمات لم تتغيَّر في أيِّ دين، فهي مُوافِقَة للفِطرَة الإنسانيَّة في كلِّ زمان وفي كلِّ مكان؛ لذلِك جاءَت بأسلوبِ الوصيَّة، أنَّ هذه وصيَّة الله -عزَّ وجلَّ-، من أول نوح إلى يومِ القِيامة لا بُدّ أن نتواصى بها ونُذَكِّر أنفُسنا بها.

جاء في الآية الأولى: {لَعَلَّكُم تَعقِلونَ}، والثانية: {لَعَلَّكُم تَذَكَّرونَ}، والثالِثَة: {لَعَلَّكُم تَتَّقونَ}...

لماذا في الأولى {لَعَلَّكُم تَعقِلونَ}؟ هذهِ الأشياء المنهيات التي يريد أن يفعلْها لا يُقِرُّهُ عاقِل عليه، والعَقل أصلًا بطبيعته يرفُض هذهِ الأشياء، أي أنَّ العاقِل يرفُض الفواحِش، العاقِل يرفُض أن يَقتُل ابنه، العاقِل يرفُض أن يَقتُل النَّفس التي حرَّمَ الله، العاقِل يرفُض أن يعُقَّ أباهُ وأُمَّه، العاقِل يرفُض الشِّرْك، فكأنّ الله يقول لك أنَّ قضيَّة التَّوْحيد هي قضيَّة إن رفضها إنسان فهذا يعني أنَّ هناك في عقله خلل، معنى أن يرفض الإنسان التَّوْحيد ويرفُض دلائِل خَلْق السَّماوات والأرْض، هذا إنسان في عقلِهِ خلل {ذلِكُم وَصّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَعقلونَ}(الأنعام: ١٥١).

هذه خَمْسَة وصايا تنظم المجتَمَع نظامًا عامًا، ولكن ماذا عن العلاقات بين النَّاس وبعضها، نحن نقول ونؤكِّد: هذهِ الأوامِر لو حَصَل فيها خَلَل في أيِّ مُجتَمَع لن تقومَ لهُ قائِمَة، وتجِد حتى المجتَمَعات الغربيَّة وأي حضارة تقوم تحرِص على هذهِ الأشياء حتى لو كانت كافرة بمسألة التَّوْحيد تعرف أن هذه الوصايا هامة جدًا لقيامها واستمرارها.

مسألة الشِّرْك في سُنن قيام الحضارات –وهذا يحتاج جَلَسات– هل هو مُؤثِّر في انهيار الحَضارة؟ أم أنه غير مؤثِّر؟ الذين تكلموا في "قيام الحضارات والدُّوَل" اختلَفوا، هناك مَن قال: حتى لو غابَ التَّوْحيد لكِن الدَّوْلَة أو الأُمَّة صاحِبَة الحَضارَة حافظت على القواعِد العامَّة الباقية مثل: العَدل، والإحسان، وشُكْر النِّعمَة، وعدَم القتْل، ومَنْع الظُّلْم، لو حافظت على هذه الأمور هذه الدَّوْلَة تستمر.

وهناك مَن قال: لا، مُجرَّد وجود الشِّرك حتى مع الحِفاظ على هذهِ الأشياء سيؤدِّي إلى انهيار... وطبعًا كلام القُرآن يتجه أنَّ وجود الشِّرْك سبب لانهيار أيِّ دَوْلَة. لأن الشِّرْك سيجعلك تكفُر بهذهِ الأشياء، وسيجعلك تضبط هذهِ الأشياء بعقلِك، فتضع قواعد خاطئة فتقع. ولكن الشِّرْك فقَط يؤخِّر سقوط الدَّوْلَة، هناك أشياء تُعجل بسُقوط الدَّوْلَة مثل الظُّلْم، يقولُ النبي –صلى الله عليه وسلم–: (لا قُدِّسَت أُمَّة لا يأخُذُ فيها الضَّعيف حَقَّهُ مِنَ القَوِيِّ غيرَ مُتعتِعْ)[٢] أي: أنَّ اللهَ –عزَّ وجلَّ– لن يحفَظَها ولن يُقَدِّسَها ولن يرْفعَها، وسَتَكون أُمَّة مُهانَة، أُمَّة ذليلَة، ما مواصفات هذه الأُمَّة؟ (لو أن الضَّعيف لا يأخُذُ حقَّهُ من القويِّ غيرَ مُتَعْتِع) أي يجب أن يأخذ حقُّه وهو غير خائف، بمعنى لو أنَّ الضَّعيف أخذ حقّه وهو خائف فليست هذه الأُمَّة التي يرضاها الله –عزَّ وجلّ– (لا قُدِّسَت أُمَّة لا يأخُذُ فيها الضَّعيف حَقَّهُ مِنَ القَوِيِّ غيرَ مُتعتِعْ).. إذًا الحِفاظ على بقية الأشياء يُطيل عُمْرَ الأُمَّة، مثل الدُّوَل الغربيَّة الآن، دُوَل كافِرَة ولكن كيف قامت الحَضارَة فيها؟ لأنها تحافِظ على بقية الأشياء، كُلّ عمود من هذه الأعمِدَة

---

٢ عن أبي سعيد الخدري: هلّا مع صاحبِ الحقِّ كنتُم؟ ثم أرسل إلى خولةَ بنتِ قَيسٍ فقال لها: إن كان عندك تمرٌ فأقرِضينا حتى يأتيَنا تمرٌ فنقضِيك. فقالت: نعم، بأبي أنت وأمي يا رسولَ اللهِ ! فأقرَضَتْه، فقضى الأعرابيَّ وأطعمَه. فقال: أوفَيْتَ أوفى اللهُ لك. فقال: أولئك خيارُ الناسِ؛ إنه لا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لا يأخذُ الضعيفُ فيها حقَّه غيرَ مُتَعْتَعٍ

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الترغيب ١٨١٨ •صحيح •

يختلّ يُقصِّر عُمْر هذهِ الدَّوْلَة وهذهِ الحضارة، الآن هم أخلُّوا بالتَّوْحيد، وأخلُّوا بالأُسرَة والفواحِش، لكِنهم محافظون على منع الظُّلْم ومنع القَتْل –على الأقلّ ظاهِريًّا– وإعطاء اليَتيم حقَّهُ، يهتمُّون بدقائِق إعطاء وأخذ الحُقوق، والشَّريف منهم يُحاكَم، فحفاظهُم على هذا يؤخِّر سقوط الدَّوْلة، لكن لها أجَل: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ}(الأعراف: ٣٤) لها أجَل سيأتي، طالما هناك شِرْك فحتمًا ستسقُطْ، لكن وجود العَدْل وإعطاء الحَقّ للضَّعيف يُؤخِّر سقوط هذهِ الدَّوْلَة.

فلو أردنا أن نقيم دوْلَة إسلامية لا بُدَّ من نشر هذهِ المعاني أولًا في المجتَمَع، عندما تُنشَر هذه المعاني في المجتَمَع أولًا، يأتي بعد ذلك تفاصيل الشَّريعَة، ونتمكن عندها من الكلام في أبواب كثيرة من الشَّريعَة، ولكن تحتاج لتأصيل هذهِ الأشياء أولًا.

{وَلا تَقرَبوا مالَ اليَتيمِ إِلّا بِالَّتي هِيَ أَحسَنُ حَتّى يَبلُغَ أَشُدَّهُ}(الأنعام: ١٥٢) اختيار اليَتيم، هذا الشخص الضَّعيف الذي ليس له أحد يحافِظ عليه، ولا توجد رقابة، أي لو أنَّ هُناك طفل يتيم عمه هو المسؤول عنه، فمن الصعب أن توجد رقابة وأن تُوجِد قوانين –مهما كانت في قمَّة الدِّقَّة–، كيف تراقِب عمه في الأكل مثلًا! ألّا يأخذ طعامًا زائدًا من اليتيم!

لذلِك في الأوامِر الأولى عندما نزل المنع التَّامّ من القُرب من اليتيم كان من شدَّة تحرُّج الصَّحابَة أنهم كانوا يفصلون أكل اليتيم عن أكلهم، فكان طعام اليتيم يفسد، {وَيَسأَلونَكَ عَنِ اليَتامى}(البقرة: ٢٢٠) عندها ذهبوا يسألون النبي –صلى الله عليه وسلم– ماذا نفعل؟ أكله يفسَد، فقال الله: {قُل إِصلاحٌ لَهُم خَيرٌ وَإِن تُخالِطوهُم فَإِخوانُكُم} أي ليس هناك مشكلة، ضعوا طعامكم مع بعضه البعض وكلوا مع بعضكم، لكن من الممكن رغمًا عنك وأنت تأكل، تأكل لقمة من مال اليتيم، ليست من مالك، فماذا يقول الله؟ {وَاللَّهُ يَعلَمُ المُفسِدَ مِنَ المُصلِحِ} مَن الذي قصدُه من خُلطة المال أن يصلح مال اليتيم، ومن الذي قصدُه من الخُلطَة أن يأكل مال اليتيم.

إذًا هُناك أشياء عندنا في الشَّريعَة مهما وضَعت أنظِمَة إدارية للرقابة عليها لن تستطيع، هذه في النفس بين العبدِ وبينَ الله. لذلِك الرقابات الإداريَّة ووضْع القوانين لضبط الأشياء، هذا مهم جدًا في أيّ مجتَمع، لكِن الأهمّ منه نشر روح رقابة الله والخوف من الدَّار الآخِرَة.

مثلًا كمسألة الذي يتلاعب بالطَّلاق، أن يطلِّق زوجته.. يَعضِل الزَّوْجَة، يتركها حتى تقارب على انتهاء العِدَّة ثم يُرجعها، ثم يطلِّقها ثم يتركها، هو يتلاعب بالمرأة نفسيًّا ويضغَط عليها لكي تفتدي نفسَها منهُ، هو أمام النَّاس يمَارِس حقًّا شرعيًا، أنا من حقي أن أُطلقها! الذي يقوم بهذا الفعل -بالرَّغْم أنَّه ظاهِريًّا لم يفعل حرامًا- ماذا قال الله للذي يفعل هذا؟ قال: {وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا}(البقرة: ٢٣١).

إذًا هناك أشياء في الشَّرْع لا يضبطها إلا مراقبة الله والخوف منه... هنا قال الله: {وَلا تَقرَبوا مالَ اليَتيمِ}(الأنعام: ١٥٢) ماذا قال؟ {إِلّا بِالَّتي هِيَ أَحسَنُ} أنت من الممكن أن تخدع النَّاس وتُنشئ مشروعًا وتقول: هذا أفضل لليَتيم، لكِنَّه في الواقع أفضل لك وليس لليَتيم! بل هذا سيضُرّ اليَتيم، الذي يعلَم ذلِك هو الله؛ لذلك قال الله: {وَاللَّهُ يَعلَمُ المفسِدَ مِنَ المصلِحِ}(البقرة: ٢٢٠). إذًا هناك منع تامّ من الاقتراب من أموال الضُّعَفاء إلا أن تُصلحها له.

وهذا أحد قول الله عزَّ وجلَّ: {وَارزُقوهُم فيها}(النساء: ٥)، لم يقل: "وَارْزُقُوهُمْ مِنهَا" بعض العُلَماء تكلموا في الإعجاز الاقتصادي في سورَة النِّساء، قالوا: {وَارزُقوهُم فيها} ليس منها، منها أي تترك مال اليتيم كما هو، وتعطي له منه فينتهي ويفنى، لكن {وَارزُقوهُم فيها} أي: استثمروا لهُم في هذا المال ثُمَّ أعطوهم من الرِّبْح... أعيد {وَارزُقوهُم فيها} أي استثمِروا لهُم في المال ثُمَّ أعطوهُم من الرِّبْح وليس من أصل المال حتى لا يفنى مال اليتيم.

الشَّاهِد: {وَلا تَقرَبوا مالَ اليَتيمِ إِلّا بِالَّتي هِيَ أَحسَنُ حَتّى يَبلُغَ أَشُدَّهُ}(الأنعام: ١٥٢) العُلَماء اختَلَفوا {يَبلُغَ أَشُدَّهُ} أي كم يكون عمره؟ بعضُهُم قال: عشرين، بعضهُم قال ثمانيةَ عشَر، وبعضُهُم قال خمسة وعشرين، بعضُهُم قال ثلاثين، وأغرب وأبعد من قال أربعين وستِّين قِياسًا على {حَتّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَربَعينَ سَنَةً}(الأحقاف: ١٥).

القرآن أتى بوصفين قال: {فَإِن آنَستُم مِنهُم رُشدًا فَادفَعوا إِلَيهِم أَموالَهُم}(النساء: ٦)، وقال: {حَتّى يَبلُغَ أَشُدَّهُ}(الأنعام: ١٥٢)، فأتى بوصْف الرُّشْد والشِّدَّة، هذا الوصْف قد يختلف من شخص لشخص، قد يصل شخص إلى الرُّشْد والشِّدَّة -عنده رُشْد عقلي وشِدَّة بدنيَّة- يستطيع أن يتحمَّل ويعمل بهذا المال، تعطيه مثلًا مئة ألف جنيه أو خمسين ألف جنيه، قد يكون شاب عمره ثمانية عشر سنة لكِنَّه سَفيه، تعطيه المئة ألف يضيّعهُم، فهذا لا يأخذ مالًا، وقد يكون هناك شخص في السادسة عشر ليس سفيهًا، عنده رشد عقلي، وعنده شدَّة يتحمَّل أن تُعطيه هذا المال ويُحسن التصرُّف فيه.

إذًا –واللهُ أعلَى وأعلم– الرَّاجِح أنَّ الموضوع ليس مضبوطًا بسنّ، الموضوع مضبوط بالاختبار لحال اليتيم وعقله، وهذا يُعلّمك أنَّه من الممكن مستقبلًا عَمَل لجان اختبار تدريب لليَتيم، متى يأخذ ماله، لا أن يتم وضع قانون وضعي عند سن ثمانية عشر سنة يأخذ المال. أغلب من يكونون في ملاجئ يأخذون أموالهم فيُتلفونها، وبعدها يعمل كقاطع طريق "بلطجي" أو يعمل أي عمل إجرامي، لأنَّه ضيّع ماله وتصرف فيه بسفه.

لكِن انظر تعبير القرآن: {آنَستُم مِنهُم رُشدًا}(النساء: ٦) و{حَتّى يَبلُغَ أَشُدَّهُ}(الأنعام: ١٥٢) لذلِك اقتَرَح بعض العُلَماء أن يتم عمل مراكز تدريب واختبارات؛ متى يأخذ اليتيم أمواله.

والرُّشْد؛ جُمهور أهل العِلم يقول: أنَّ الرُّشْد هنا ليس المقصود به الرُّشْد الدِّيني، المقصود به الرُّشْد العَقْلي... وإن كان الإمام الشَّافعي وبعَض العُلَماء قال: إذا كان الشخص ذكيًا وتاجِرًا جيدًا لكِنه عاصٍ ومُسرف في المعاصي أيضًا هذا ليس رُشْدًا.

لكِن الرَّاجِح –واللهُ أعلى وأعلَم– رأي جُمهور العُلَماء أنَّ الرُّشْد يكفيه هنا الرُّشْد العَقْلي، لأنَّ المسألة هُنا مسألة مال واللهُ –عزَّ وجلَّ– يُحاسِبهُ على معصيته بينه وبين الله عز وجل. إذًا {إِلّا بِالَّتي هِيَ أَحسَنُ} حتى متى؟ {حَتّى يَبلُغَ أَشُدَّهُ}

وهنا نأخذ قاعِدَة مُهمَّة جدًا جدًا في الفِقْه: "التَّصَرُّف في مالِ الغَيْرِ يَكونُ بالأَحَظِّ لَهُ"، دائمًا عندما تتصرَّف –وخاصَّةً إن لم يَأذَن لك وأذن لك الشرع – أو إن أذِنَ لك صاحب المال... مثل ماذا؟ أنت مثلًا وَكيل لشخص، أعطاك ماله وجعلك وكيله لتشتري له شيئًا، لا يجوز لكَ أن تتصرف له بالأقلّ، يجب أن تتصرَّف لهُ –يسميها الفُقَهاء بالأحظّ أي بالأفضَلِ له– أي أن شخصًا أعطاني أموالًا وقال لي: اشترِ لي سيارة...

استطراد: ((لماذا أتكلم في هذه الأشياء؟ لأننا نريد أن نتعوّد أنَّه ليس من اللازم أن يكون الدَّرْس كُلّه وعظيًا، نريد التخلص من الفكرة التي أصبح فيها نوع من العَلْمَنَة عند بعض النَّاس، أنَّ أي أحكام شرعيَّة أو أي معاملات اجتماعيَّة من الشَّريعَة لا يريد أن يسمعها، ومن أين ستعرفها إذًا؟! في حين أن هذا جاء مُتَداخِلًا في القرآن، أي جاء بالتَّوْحيد متداخلًا مع العقيدة ثم يأتي بالأطْعِمَة، وهذا كله في

سورَة مكِّيَّة لماذا؟ لأنَّ هذا الدِّين مُتَداخِل لن يستطيعوا مهما حاولوا عَلْمَنَة هذا الدِّين، هذا الدِّين عَصيّ على العَلْمَنَة، بقية الأديان التي حُرِّفَت أصبحِت من السهل أن تتعَلمن، بنوا لهم كنيسة وبنوا لهم معابِدْ، ادخلوا ابكوا واخرجوا مارسوا حياتكُم، فأصبَح من السهل أن تتعلمَن، الدِّين الوَحيد الآن الذي يرفض العَلْمَنَة هو الدِّين الإسلامي.

على سبيل المثال؛ إحدَى التَّعريفات التي أطلَقتها مراكِز البُحوث الأمريكيَّة على كلمة "إسلامي" التي نسمعها هذه الأيام في السِّياسة، إسلامي، قالوا الإسلامي هو الذي يرفض تَنْحِيَة الشَّريعَة من المجتَمَع. فأي شخص عنده هذه الفكرة، حتى إذا كان مُتَساهِلًا، حتى إذا كان مُتسيِّبًا، حتى إذا كان يُغيّر أشياء في الشَّرع>>> هذا إسلامي ويجب أن يُحارَب. فمُجرَّد الرَفْض الداخلي فقط لتنحيَة الشَّريعَة عن المجتَمَع، الذي يرفض هذه الفِكرَة يكون اسمه إسلامي ويجب أن يُحارَب!!))

نعود ونقول قاعدة مهمَّة جدًا في التَّعامُل نُخطئ فيها، شخصٌ ما يعطيك مالًا كي تشتري له شيئًا، أنت هُنا وكيله، من دون أن تخبره تقوم بعملية "سمسَرَة"، مثلًا الشيء عند البائع بمئة ألف، وقمت معه بفِصال حتى أصبحت تسعين ألْفًا، فتأخذ أنت العشرة آلاف وتقول له: أتيت لك بها أو تقوم أنت بأخذ خمسة آلاف وتقول له اشتريتها لك بخمسة وتعسين ألفًا... هو أعطاك المال بِصِفَتَك وكيلًا عنه، فمن المفترض أن يعطيك أُجْرَة الوكالة لا أن تفعل أنت هذا.

ثانيًا، يجب أن تقول له بصراحَة: قمت بالفِصال واشتريتها بتسعين ألْف، وأُريد حقي كوكيل، أو تتفق معه قبل أن تفعل هذا، تقول أنا أُريد حقِّي، أنا سأعمل لك سأكون وكيلًا عنك، لكن لا تفعل هذا دون علمه، إلا لو كان هو يعلم ما تفعله من السمسرة "المعروف عُرْفًا كالمشروط شرْطًا"... المعروف أنَّه يأتيك على أساس أنَّك سمسار "وسيط" وتعمل في هذا المجال، وتشتري وتأخذ نسبَة ويكون برضى الطَّرَفين، المشتري والبائِع، الشَّاهِد ألا تتَصرَّف في مالِ الآخَرين إلا بالأفضلِ لهُم.

جوابًا على سائِل –السؤال غير واضح –: المسألةَ مُتَداخلَة، إذا لم يكن معروفًا عن الشَّخْص أنَّه يأتي بأشياء ويعطيها إياك بصفتك أنَّك وكيل، يكون حرامًا

لذلِك الخُطورَة دائمًا في العُقود الماليَّة أنَّه لا يتم وصفها من البداية، وهذا يسبّب مشاكِل عند المفْتين أيضًا و يضعهم في حَرَجْ، يجب توصيف العَقد الذي بيننا ما هو؟

يجب أن نتفق ونقول أنت ستأخذ الأموال مني، هذا العقد ماذا يُسمّى في الشَّريعَة؟ اسمه وكالة أم وساطة "سمسرة"؟ يجب توصيف العقد من بداية التعامل، غياب التَّوْصيفات في العقود يؤدي للتَّداخُل فتذهب الأموال، يأتي للمُفتي يقول له: لا، أنت وكيله، يقول له: لا، أنا اتفقت على أنَّه سمسَار "وسيط"، يرد الثاني واللهِ أنا أعطيته المال على أنَّه وكيلي، لماذا لم تتفقوا من البداية؟

لذلِك من الحديث المروي الذي حسَّنُه بعض أهلِ العِلْم: (ثلاثةٌ لا يُستَجابُ دُعاؤهُم –أو لا يستجيبُ اللهُ دُعاؤهُم–، منها: رجلٌ أعطَى مالًا ولم يُشْهِد)[٣] أعطيت مالًا لأحدهم ليقوم باستثمارها لك ولم تُشهد عليه، ثم سَرَق المال فتدعو عليه، دعاءك غير مُستَجاب، لماذا؟

(((سؤال من الحضور: حتى إذا استدنت المال؟

الجواب: نعم، لأنَّ الشَّرع أمرك أن تُشْهِد، أنت الذي فرَّطت في حقِّك، أنت الذي ارتضيت هذه المعَامْلَة... إذًا ارتضيها للنهاية)))

الله قال توجد تجارة من الممكن أن تكون عن تراضٍ بيننا، أنت ارتضيت، عن تراضٍ، إذًا عليك أن تُكمِل فيها، لا تأتِ بعد ذلك فتقول هو خدعني، أنتَ مخطئ، لكن إذا كانت هناك احتمالية أن

---

٣ عن أبي موسى الأشعري: ثلاثةٌ يَدعونَ اللهَ عزَّ وجلَّ فلا يُستجابُ لهُمْ: رجلٌ كانتْ تحتَهُ امْرأةٌ سيِّئةُ الخُلُقِ فلَمْ يُطلِّقْها، ورجلٌ كان لهُ على رجُلٍ مالٌ فلَمْ يُشهِدْ عليْهِ؛ ورجُلٌ آتى سفيهًا مالَهُ؛ وقال اللهُ تعالى: ولا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أمْوالَكُمْ.

الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٣٠٧٥ • صحيح •أخرجه الطبري في «تفسيره» (٨٥٤٤)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٥٣٠)، والحاكم (٣١٨١) واللفظ له.

يخدعك، أنت يجب عليك أصلًا أن تُشهِد، أي نَعم الأمر في الآية مثلما قال جُمهور العُلَماء أنَّه على الاستحباب لكِن أنت مخطئ بتفريطك في حقك بعدم الإشهاد.

الشَّاهِد من هذا الحَدِيث أنَّ بعض أهل العلم ضَعَّفه، الشيخ مصطفى العدوي ضعَّفه والشيخ الألباني حسَّنه، أيًا كان، ضبط العقود الماليَّة قبل الدُّخول فيها مُهِم جدًا جدًا، الذي يؤدي إلى خلل عند النّاس في شراء السيارات، وشراء الأدوات المنزليَّة، ويقول لك لا، هذا فعل وفعل.. أخذ المال دون علمي ويستثمره ونحن لم نتفق على هذا، ضبط كل هذا مهم جدًا، قبل البداية في أي مُعاملَة ماليَة هذا يجب أن يُضبَط، والنِّسبَة والمرابَحَة والمضاربَة، وماذا يُسمى هذا العقد؟ وكم سيأخذ؟ يجب أن يكون كل شيء مضبوطًا، لأنَّ كثيرًا من النَّاس الآن شكواها في المال الذي يُسرَق.

الأولى؛ لا تقرب مال اليَتيم،

الثانية؛ أنت مضطَّر أن تتعامَل مع أموال النَّاس بيعًا وشراءً، أريد أن أعيش حياتي بين النَّاس أشتري منه سيارة، أشتري منه أرزًا، نبيع، فيقول الله لك: {وَأَوفُوا الكَيلَ وَالميزانَ بِالقِسطِ}(الأنعام: ١٥٢) لم يقل (تَعامَلوا بالقِسْط) ماذا قال؟ {وَأَوفُوا} هذه مثل {وَبِالوالِدَينِ إحسانًا}(الأنعام: ١٥١) لم تأتِ هنا بالنَّهي.

قبلها: {وَلا تَقرَبوا مالَ اليَتيمِ إِلّا بِالَّتي هِيَ أَحسَنُ}(الأنعام: ١٥٢) ثم ماذا قال؟ {وَأَوفُوا الكَيلَ وَالميزانَ} لم يقل: "ولا تُبخِسوا الكَيْلَ والميزان" قال: {وَأَوفُوا}، فيجب أن تتعامَل بالوفاء التَّامّ.

ظاهِر هذه الآية يقول لك يجب أن تتعامَل بالحبّة، لأنَّ الوفاء التَّام أي بحبة الأرز، أي بورَقِة الجرجير زيادة في الميزان توضع، لكن هذا من الممكن أن يؤدِّي إلى الحَرَج في المعامَلات الماليَّة فيما بين الناس... لذلك ربنا في الآية بعدها مباشرة قال {لا نُكَلِّفُ نَفسًا إِلّا وُسعَها} أهم شيء أن تبلُغ وُسْعَك وألّا تخدعه... فإن حدث شيء رغمًا عنكما فلا بأس، اللهُ -عزَّ وجلَّ- يعفو عنها، واليَسير معفو عنه، وهذا هو رَفْع الحَرَج في الشَّريعَة الإسلاميَّة.

ف {لا نُكَلِّفُ نَفسًا إِلّا وُسعَها}.. بالضّبْط كآية برّ الوالدين في سورة الإسراء: {فَلا تَقُل لَهُما أُفٍّ وَلا تَنهَرهُما}(الإسراء: ٢٣) آية صعبَة، أنَّك مُجرَّد القول إذا لم يسمعوه أنت مُحاسَب عليه، فمن الممكن

رغمًا عنَك أن يحدث موْقِف، فماذا يقول الله بعدها؟ {إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ}(الإسراء: ٢٥) لو أنتَ أصلًا صالِح طوال حياتك لكن أخطأت خطأ: {فَإِنَّهُ كَانَ} ماذا؟ {لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا} المعاملات الاجتماعيَّة حتى تحافِظ عليها بلا هفوات صَعْب، فدائمًا يقول الله لك أنت مُطالَب بالوُسْع: كما قال تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُم}(التغابن: ١٦) في سورَة التَّغابُن في المعامَلات الماليَّة بعد قوله تعالى {إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ}(التغابن: ١٤)

إذًا {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ}(الأنعام: ١٥٢) فيقول تطفيف الميزان، ظاهِر الآية أنَّك أنت مسؤول عن أن أيَّ زِيادة أو نقص، وأنَّك يجب أن تتعامل بالبيان والوفاء التام في كُلّ شيء، فهذا من المُمْكِن أن يكون صَعْبًا جدًا في البيع والشراء، أن تصِل إلى مرحلة الوفاء التام صعب جدًا، لكن يمكن أن نصِل إلى مرحَلَة أنَّ كلا الطرفين راضيين.

مثلًا أنا مُشترٍ وأنا أعرف أنَّ في سوق السيارات -عُرْفًا- يوجد أشياء لا تُقال، لكن يوجد عيوب تُقال.

غالِب المعامَلات الاجتماعيَّة تتطلب خوفًا من الله، ومهما وُضِع لها من قوانين إداريَّة أيضًا قد يحصل فيها تلاعب، لذلك غالِب المعامَلات، تطفيف الميزان أشياء سَهْل جدًا التلاعب فيها مثلًا: في الميزان يأتي بكفتين متماثلتي الشكل، لكِن الكَفَّة التي يضع عليها البضاعة أثقَل من التي يضع عليها الوزن، فهي أثقل من الكَفَّة الأخرى.

غالِب المعامَلات الاجتماعيَّة كذلك، كمُعاملات الرَّجُل مع زوجَته، مَن الذي يطَّلِع عليهُم؟ قد تضر الزوجة الزَّوج وقد يضرّها هو، من الممكِن في الخُلْع أن تكون هي مظلومة أو قد تكون هي ظالِمَة، هذا وارِد، لذلِك لا بُدَّ من بثّ روح الوَعظ وأنَّ هذهِ الأشياء طاعَة، وأنَّ الحياة كُلَّها طاعَة، وأنَّ البيع والشِّراء هذا طاعَة.

لذلِك تأتي لحظة وأنا على وشك البيع: {وَذَرُوا الْبَيْعَ}(الجمعة: ٩) أتركه من أجل الصلاة، لأنَّ هذه إذا كانت طاعة فأنا أتركها لطاعَة أوْلى، يجب بثّ هذهِ الرُّوح في المجتَمَع لذلِك جاءت البدايَة بالتَّوْحيد: {أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}(الأنعام: ١٥١) ألا تُشرِكوا باللهِ شيئًا، مُهِم جِدًا، لأن المعامَلات الاجتماعيَّة

سهل جدًا أن تتلاعب فيها، فمهما وُضِع لها إداريَّات وضبط من الممكن أن يتلاعب الإنسان فيها، فيجب بَثّ روح الخَوْف من الدَّار الآخِرَة.

{وَأَوفُوا الكَيلَ وَالميزانَ بِالقِسطِ}(الأنعام: ١٥٢) جاء بصيغَة الوفاء.

{لا نُكَلِّفُ نَفسًا إِلّا وُسعَها} وبعضُهَم قال هُنا، أغلب المفَسِّرين قال المعنى الذي قلته: أنَّ المقْصَد هنا أنَّك أنت رغمًا عنك حدث منك شيء، البائع يقع منه فاكهَة، المشتري المال قد لا يكون كاملًا بنفس الحق، الأشياء البينيَّة الصغيرة، هذه معفو عنها، هذا أحَد المعنى قاله كثير من المفَسِّرين.

المعنى الثاني: قالوا: أنَّ اللهَ -عزَّ وجلَّ- في المال لم يُكلِّفْكَ بما فوق طاقَتِك: {لا نُكَلِّفُ نَفسًا إِلّا وُسعَها} الله يقول: أنا أعلَم الذي يُصلِح الإنسان، ولم أُكلِّفهُ فَوْقَ طاقَتِه، فلا تقل: هذا صعب بل عليك تنفيذُه، وهذا رأي الإمام الطّبَري.

أنَّ الوفاء بالكَيْلِ والميزان أنتَ مُطالَب به، الله -عزَّ وجلَّ- لم يطلُب من البائِع وهو يعطي المشتَري عطية فوق حاجته، ولم يطلُب من المشتري أن يدفَع فوق الثَّمَن، طلب من الاثنين ماذا؟ التَّمام، العَدْل: {وَأَوفُوا الكَيلَ وَالميزانَ بِالقِسطِ} ليس بالحُبّ، ليس بالودّ، ليس بالعُرْف؛ بل بالقِسط، فالله -عزَّ وجلَّ- يعلَم النُّفوس البَشريَّة ويعلم ما هو الثقيل عليها، فجاء بها بعد هذه الآية لأن هذا -الوفاء- ثقيلة على النَّفس.. أنت دائمًا حتى تُعطي الناس حقوقهم تكون ثقيلة عليك جدًا {وَيلٌ لِلمُطَفِّفينَ ۝ الَّذينَ إِذَا اكتالوا عَلَى النّاسِ يَستَوفونَ ۝ وَإِذا كالوهُم أَو وَزَنوهُم يُخسِرونَ}(المطففين: ١-٣) دائمًا هكذا، (يَرى أَحَدَكُم القذاةَ في عينِ أخيه، ولا يرَى الجزعَة -أو الجزلة- في عينِ نفسِه)، صعبَة جدًا، فدائمًا المعامَلات مع النَّاس ثقيلَة، أن تُعطي للنَّاس حقهم.. وأنت تقترض تكون أسعد أيام حياتك، وعندما تقوم بسداد القرض يكون أتعَس أيام حياتَك.. هو ينتظر المال كما كُنت تنتظره أنت!

فدائمًا التَّعامُل مع النَّاس ثقيل، فيقول الله تعالى هُنا بعد هذه الآية تحديدًا: {لا نُكَلِّفُ نَفسًا إِلّا وُسعَها}(الأنعام: ١٥٢) أنت تستطيع، أنت الذي تراوغ.

{وَإِذا قُلتُم فَاعدِلوا} هذه الأوامر كما نقول أُصول، عندما يكون واقِع المُلْتَزِم ليس فيه هذه الأُصول لا تسأل متى نصرُ الله! وأين التَّمكين؟! لا تفكر في هذه الأشياء الآن، اضبط هذه الأصول أولًا.

أنا لا أناقش هُنا فِكرة التَّزكيَة ثُمَّ التَّمكين والمراحِل، أنا أُكلّمك عن أُصول مهما حاولت أن تنشر الشريعَة في مُجتَمَع ليس فيه هذه الأشياء لن تنتَشَر، كيف ستنتَشِر وسط هذهِ العقليَّات؟

ثلاثة عشَر سنَة من عمر دعوة الرسول صلى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتمهيد العُقول والنُّفوس حتى يتلَقّوا الدِّين، يجب أن يكون هناك مُجتَمَع يُمَهَّد أولًا، تكون هناك نُفوس سويَّة لا نفوس مريضَة... عندما يكون المجتَمَع كل غَرَضه أن يكيد في الآخرين فَقَط، هذا يريد أن يكيد في هذا، وهذا يريد أن يكيد في هذا فقط، مُجتَمَع قائِم على السُّخريَة فقَط، أين ستنتشر الشريعة أساسًا؟!

فيجب أن تُضبَط هذهِ الأُصول أولًا، وأن تُحافِظ عليها حتى لو أنت مُستَضعَف، والحِفاظ على هذهِ الأشياء في وقتِ الاستضعاف هو الذي يُورِث التَّمكين.

{وَإِذا قُلتُم فَاعدِلوا وَلَو كانَ ذا قُربى} هنا كان من الممْكِن أن يقول الله الآيَة: "اعدِلوا في القوْل" انتبه! دائمًا سِياق القُرآن مُعجِز، ماذا قال؟ {وَإِذا قُلتُم فَاعدِلوا} كأنّ الأصل هو عدَم القَوْل، **[[طالما الكلمة لم تخرج، اتركها لا تخرج أفضل، لأنها إذا خرجت فليست بعائدة]]**

إذا اضطررت أن تتكلّم قُل العَدْل، قد يُعفَى عن سُكوتك، لكِن الكَلام ليس له عُذر، فرُبَّنا لم يقل: "واعدِلوا في القَوْل" قال: {وَإِذا قُلتُم} فالأصل السُّكوت، وهذا الذي رجّحَهُ الإمام النووي في قول النبيّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم: (من كانَ يؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فليَقُل خيرًا أو لِيَصمت)[٤] فقال: خيرًا تحمِل معنى اسم أفعَل تفضيل، أفضل، أي إذا تساوى الكلام مع السُّكوت، فالسُّكوت أولى. فإذا كان كلامك سيكون منه فائدَة وسكوتَك سيؤدِّي نفس الفائدَة، فالأوْلى أن تختار السُّكوت –طبعًا هذه الحسابات تحتاج آلة حاسِبة، هذه غير موجودة الآن!– نسأل الله أن يعلِّمنا ويفقهنا ويستعمِلنا.

---

٤ عن أبي هريرة: مَن كانَ يُؤمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أوْ لِيَصْمُتْ، ومَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فلا يُؤْذِ جارَهُ، ومَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٤٧٥ • صحيح • أخرجه البخاري (٦٤٧٥) واللفظ له، ومسلم (٤٧).

{وَإِذا قُلتُم فَاعدِلوا} الأخطَر أنَّ يكون كلامَك عن {وَلَو كانَ ذا قُربى} هُنا الله -عزَّ وجلَّ- يعلَم الضَّعْف الذي في النَّفس البَشريَّة إذا تكلمت عن قومي أو عن والدي أو أخي أو جماعتي أو حزبي أو دعوتي، إذا أردت قول الحق فيهم؛

أنا أصلًا أستَمِدّ قوَّتي منهُم.. انتبه! ما الذي يحدث نفسيًا؟

أنا أستَمِدّ قوتي منهُم، فإذا طعَنت فيهُم وأنا منهم سأظهر أني ضعيف -وأنا أخاف من هذا-، فليس عدم قول الحق فيهم هو فقط حرص عليهُم، أنا أفعل هذا أيضًا حرصًا على نفسي. لأنني إذا تكلمت عن قبيلتي فقُلت: نعم بصراحَة قبيلتي أخطأت في كذا، أو دعوتي أخطأت في كذا... سترمى بقول: وأنت منتمٍ لدعوَة أصلًا فيها أخطاء!! قبيلتك فيها كذا! سيُنتقص منك!

فهذا الذي يخاف أن يُنتقص منه إنْ قال الحق فيما ينتمي له فلا يقوله... هذا لسان حاله "وهَلْ أنا إلا من غُزيَّةَ إن غَوَتْ غَويتُ وإنْ تَرْشُد غُزيَّةَ أَرشُدِ؟" أي وهل أنا إلا من قبيلة غُزيَّة، وبعضُهُم قال غَزِيَّةَ، أو "غُزَيَّة"، وهل أنا إلا من غُزَيَّةَ إن غَوَت غويت: إذا هي ضلت أنا أضل معها، وإن ترشُد غُزَيَّةُ أرْشُدِ.. يقول: أنا لن أنقُدهُم، ولن أرى قبيلتي على خطأ أو صواب! الذي تفعله قبيلتي صحيح دائمًا.. حتى إذا غَوَت فأنا على خطاها، لن أفكِّر، هو أغلق وحظر عقله... أصبح فقط يُساق، لا يفكِّر!

فهُنا ربنا يقول {وإذا قلتم فاعدلوا وَلَو كانَ ذا قُربى} حتى يغلق مداخل نفسَك البَشريَّة، فلا تراودك وتوسوس لك: هذا قريبي ويجب أن أراعيه، والله أمَر بالإحسان لذوي القُرْبَى! نفسك من الممكن أن تأتي لك بتأويلات ومصالِح ومفاسِد... إلخ، فتقول لك: من المصالِح أن نحافِظ على الكيان، ونحافِظ على الدَّعوَة، ونحافِظ على القَبيلَة ونحافِظ.. إلخ.. فلا بأس إن لم نقل العَدْل في هذا الموضع!

فربنا يقول ليغلق هذه المداخل {وَلَو كانَ ذا قُربى} عليك بقول الحَق! لذلِك يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ في سورةِ النِّساء: {يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا كونوا قَوّامينَ بِالقِسطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَلَو عَلى أَنفُسِكُم}(النساء: ١٣٥) من المعاني الجَميلة التي قيلت في: {وَلَو عَلَى أَنفُسِكُم} بعضُهُم قال: هي مُتَعلِّقَة بكلمة شُهَداء التي قبلها، أي تَشْهَد لله ولو على نفسك، وبعضُهُم قال: متعلقَّة بكلمة: {قَوّامينَ بِالقِسطِ} أي: قوَّام بالقِسط على نفسك، ماذا تعني قوَّام بالقِسط على نفسك؟

أي أن نفسَك لن تستطيع أن تقولَ الحَقّ إلا إذا كنت تحاسِبها وتهذبها "قوَّام" وليس قائم، صيغة مبالغة: أنت كل يوم تحاسِب نفسَك، لماذا قلتِ هذه الكلمة؟ ألترضي فلان أم لأنها الحق؟ عندما كنت في موقف شهادة على أقربائِك، تسأل نفسك هل ما قلته هو الحق؟ فيجب دائمًا أن تُقوِّم نفسَك، وأن تتهِم نفسَك، وماذا قصدت بهذه الكلمة؟! فتقومها بصفة مستمرة، وتراجِع ما قلته.. هناك من لا يفكر ولا يسمح لنفسه أصلًا بهذا التَّفكير، {وَإِذا قُلتُم فَاعدِلوا وَلَو كانَ ذا قُربى}(الأنعام: ١٥٢).

خِتام هذه الوصايا الأربع: {وَبِعَهدِ اللَّهِ أَوفوا} فجاء الوفاء في الكيل والميزان، وأتى مع الله..

مُعاملَة مع الله بالوفاء، ومُعاملَة مع النَّاس بالوفاء، فلدينا حقوق لله وحقوق للعبيد، عليك أن توفي الاثنين.

لذلِك هناك بعض الحدود الشَّرعيَّة، مثلًا كحد السَّرقة، فإن تم الإمساك بالسارق ووصل لولي الأمر أو من ينوب عنه، فهناك حق لله وهناك حق للعبد... حتى لو تنازَل العبْد –المسروق منه– عن حقه فهناك حق قائم لله لا تنازل فيه... مثل الزَّاني أيضًا، وقد يختلف هذا في بعض الأحكام الشَّرعيَّة الأخرى.

إذًا هناك حقوق لله، وهناك حقوق للعبيد، {وَبِعَهدِ اللَّهِ أَوفوا} بعضُهُم قال: بعهدِ الله أي: كُلَّ عَهْد أعطَيتَهُ للنَّاس باسمِ الله، أيُّ كلمة وعدت النَّاس بها باسم الله.

{وَإِذا قُلتُم فَاعدِلوا} هذه من الممكِن أن تُحمَل على الشَّهادَة، ومن الممكِن أن تُحمَل على أن تقول رأيَك.

أما أن شخصًا مثلًا قال لك: أريد منك كلمة وعد فأعطني عهدَ الله عليها، قُلت له: لك عهدُ اللهِ عزَّ وجلَّ أن أفعل لك كذا، فعندها يكون هذا من أشدّ الأشياء التي يلزمك أن تفِي بها، ومن أشدّ المعاصي أنَّك بعدما أعطيت هذا العَهْد باسم الله تنقُضُه، لأنَّك قمت باستغلال اسم الله لأغراضك الشَّخصيَّة والعِياذُ بالله.

كمن يستغلّ اسم الله وتعظيم النَّاس لله لكي يبيع سلعَة، هذا لا يستغلّ مثلًا حنكته وخبرته، بل يستغلّ اسم الله، فيحلِف بالله، لذلِك؛ المنفِق سِلعَتُه بالحلف الكذِب هذا من الكبائِر، لماذا؟ معصيته ليس في كونه باع وكسب وأخذ أموال الناس بالباطل فقط، بل لأنه استغل اسم الله العظيم كي يبيع سلعته، فعل ذلك لأجل دُنيا حقيرَة!!

{وَبِعَهدِ اللَّهِ أَوفوا} وقيل كل عَهْد عاهدَنا اللهُ عزَّ وجلَّ عليه.. العُهود التي أخذها اللهُ عزَّ وجلَّ علينا هي عهود ومواثيق لازمة الأداء.

{ذلِكُم وَصّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم}، لعلكم ماذا؟ {تَذَكَّرونَ}

في الآية الأولي قُلنا {لَعَلَّكُم تَعقِلونَ}(الأنعام: ١٥١) لأنها أصلًا مُناسِبَة للعَقْل البَشري، أما {تَذَكَّرونَ} لماذا جاءت هنا {تَذَكَّرونَ}؟ لأنَّ هذه الأوامِر الأربعة تحديدًا ينساها الإنسان، لأنَّ نفسُه تميل إلى عكسها... نفسُه تميل أن يأخذ مال اليتيم فهو أمامه ولن يسأله أحد عنه، يمكنه أن يختلس من ماله ولن ينتبه أحد! أن يأخذ بعضًا مما في الكيل والميزان! لا يُشترَط أن أشهد على أقاربي وأقول الحق عليهم! لن يتوقف الأمر على أقاربي بالذات، سأقول الحق على أي شخص آخر.. يريد نقض العهد بعدما حلف بالله، النَّفس تميل إلى عكس ذلِك، فيجب أن تلازم التَذْكِرَةُ الإنسانَ، ويكون أمرًا مُنتَشِرًا بيننا، نُذَكِّر به أنفُسَنا: {لَعَلَّكُم تَذَكَّرونَ}

نختِم بهذه الآية :{وَأَنَّ هذا صِراطي مُستَقيمًا فَاتَّبِعوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبيلِهِ}(الأنعام: ١٥٣) في خِتام الوصايا العامَّة للمُجْتَمَع، وصايا المعامَلات الماديَّة والاجتماعيَّة، هنا يأتي السِّياج العَام الذي يلزم لحفظ المجتَمَع، وهو لزوم تحذير المجتَمَع: أيُّها النَّاس احذَروا من الضَّلال، هناك مناهِج ضالَّة، وللأسف عندما تُكلّم النَّاس عن المناهِج الضَّالَّة قد يشعرونك أنَّك قادم من المرِّيخ، فيتساءلون أين هي المناهِج الضَّالَّة؟!

لو لم يكن هذا هو الواقع؛ فلماذا تطلب يوميًا في الفاتِحَة: {اهدِنَا الصِّراطَ المستَقيمَ ۝ صِراطَ الَّذينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم غَيرِ المغضوبِ عَلَيهِم وَلَا الضّالّينَ}(الفاتحة: ٦-٧)؟ أنت تخاف يوميًا أن تكون من المغضوب عليهِم أو الضَّالِّين، أنت يوميًا خائف أن تَضِلّ.. فيجب أن يُحذَّر المجتَمَع من الضلال، وأن يُذَكَّر المجتمع أن هناك "أَهْلَ السُّنَّة" هم كالسِياج يُقام بهدف منع البِدَع والخُرافات والضلال، يجب أن يُعلَّم للمُجتَمَع ويُنشَر بين الناس ويكون لذلك أولوية، أن هناك طريقًا واحِدًا هوَ الحَقّ والطُّرُق الأخرى كلها ضلال.

{وَأَنَّ هذا}(الأنعام: ١٥٣) وكلمة "هذا" اسم إشارَة للواضِح القَريب، الأمر واضح وقريب. {وَأَنَّ هذا صِراطي مُستَقيمًا فَاتَّبِعوهُ وَلا تَتَّبِعُوا} ماذا؟ {السُّبُلَ} وليس السَّبيل الضَّالّ، لماذا جاءت {السُّبُلَ} بالجَمع؟ مثل أول السُّورَة: {الحَمدُ لِلَّهِ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ وَجَعَلَ}(الأنعام: ١) ماذا؟ {الظُّلُماتِ وَالنّورَ}، طُرُق الضَّلال كثيرة.. وهذا من غِواية الشَّيْطان للنَّاس؛ لو جعل لهُم سبيلًا واحِدًا للضَّلال، فإذا افترضنا أنَّه لم يعجبك؟ فإن احتماليَّة سقوطك ستكون ضئيلة جدًا، لكِن عندما ترى أن هناك خَمسمئة سبيل للضلال، فتكون احتمالية السقوط أكثر.

كمثال: في رمضان؛ لو كان هناك مسلسل واحِد وافترضنا أنَّه لم يعجبك؟ إذًا ستتركه، ولا شاغل لك فستصلي، لكن حينما تكن ثلاثمئة مسلسل في خمسمئة قناة ومُتَدَاخلين ومُناسبة لكل الأعمار -بدايةً ممن عمره شهر حتى عمر ٨٠٠ عام- قد صنعوا للكل ما يشغله بحيث يظل كل النّاس يتابعون، إذًا نسبة الضَّلال ستزيد!

{وَلا تَتَّبِعُوا}(الأنعام: ١٥٣) ماذا ؟ {السُّبُلَ} السَّبيل هو الطَّريق، يقال السَّبيل أي الذي سبَّلتهُ السّابِلَة، بمعنى أن هناك أناسًا كثر يمشون في طريق بالرغم أنه طريق ضلال {وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ}.

انتبه كيف يحدث الانحراف؟

أولًا الانحراف من الممكن أن يكون بسبب مناهج تدَّعي أنها تمْلك هذهِ الأشياء التي ذكرت في الآيات السابقة: لدينا عَدْل، ولدينا حُريَّة، ولدينا مُساواة اجتماعيَّة، لكِن بلا تَوْحيد... أي أنَّه من الممكِن أن تظهر مناهِج تستَغِلّ هذهِ الأوامِر التِّسعَة، فعلى من يؤصل لهذه الوصايا -التي تقيم أي مجتمع- عليه أن يوضح ويؤكد: أن هذا لن يكون إلا بدينِ الله، بالتَّوْحيد الخالِص، باتِّباعِ سُنَّةِ النَّبي صلى الله عليه وسلَّم،

يجب أن ترجع فتؤصل مرة أخرى على الأصُول... فهذه الآية الختامية للوصايا هي ضابِط وسياج لما قبلها لكي لا يأتي أي منهَج ويخدعون النَّاس بلا توحيد وتأصيل أن يكون هذا موافقًا للكتاب والسنة.

{وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ} كيف يحدث هذا الانحراف؟ تأمل التَّعبير القُرآني المعجِز: "وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فتُفَرِّقَكُمْ"؟ أم {فَتَفَرَّقَ بِكُم}؟ ما هو الفَرْق بين "فتُفَرِّقَكُمْ" وبين {فَتَفَرَّقَ بِكُم}؟ تُفَرِّقَكُمْ بمعنى إذا نحن سِرنا، إذا كل مجموعة من الناس ساروا في سبيل، هذه السُّبُل ستفرّقنا، وهذا معنى مُهِم في الآية وذَكَرُه قَتادَة وغيرُه.. لكن ماذا تعني {فَتَفَرَّقَ بِكُمْ}؟ هذه باء المِصاحبَة... تَفَرَّقَ بِكُم: أي أن السَّبيل سيأخذك ويميل بك وأنت غير منتبه، {فَتَفَرَّقَ بِكُم} أي سيصحَبُك، هذه الباء يسمونها باء المِصاحَبَة أي سيأخذك دون أن تنتبه، مُجرَّد أنَّك تقف لتستطلع أي باب من أبواب الضلال.. كما قال النَّبي صلى الله عليهِ وسلَّم: (ضَرَبَ اللهُ مَثلًا صِراطً مُستَقيمًا وعلى جَنَبَتَيِ الصِّراطِ سوران، وفيهِما أبواب عليها ستور مرخاة)[٥] هذا السُّور ليس سورًا مصبوبًا وإنما فيه فتحات... أَبْوابٌ مُفَتَّحَة.. وهذه الأبواب ليست مغلقة بمفاتيح، عَلَيْها سُتورٌ مُرْخاة.. النبي صلى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول: (هناك مُنادٍ عَلى كُلِّ باب)، وهناك حديث آخر مروي عن ابنِ مسعود عن النبي صلى الله عليهِ وسلَّم: (خَطَّ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلَّمَ خَطًّا وَخَطَّ خُطوطًا عَنْ يَمينِهِ وعَنْ يَسارِهِ وقالَ: هذا سَبيلُ الله وهَذِهِ السُّبُلُ فَلا تَتَّبِعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبيلِه)[٦] على كُلِّ سَبيلٍ شَيْطان يَدْعو –انظر التَّخَصُّص– أي ليس شيطان واحد مسؤول عن السُّبُل الضَّالَّة كلها، لا.. بل عَلى كُلِّ سَبيلٍ مِنْها شَيْطانٌ يَدْعو إلَيْها متخصص في الإضلال في هذا الباب،

٥ عن النواس بن سمعان الأنصاري: ضربَ اللهُ مَثَلًا صِراطًا مُسْتَقِيمًا وعلى جَنْبَتَيْ الصِّراطِ سُورانِ فيهما أبوابٌ مُفَتَّحَةٌ وعلى الأبوابِ سُتُورٌ مُرْخاةٌ وعلى بابِ الصِّراطِ داعٍ يقولُ يا أيُّها الناسُ ادْخُلوا الصِّراطَ جَمِيعًا ولا تعوجُوا وداعٍ يَدْعُو من فوقِ الصِّراطِ فإذا أرادَ الإنسانُ أنْ يفتحَ شيئًا من تِلْكَ الأبوابِ قال ويْحَكَ لا تَفْتَحْهُ فإنَّكَ إنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ فالصِّراطُ الإسلامُ والسُّورانِ حُدُودُ اللهِ والأبوابُ المُفَتَّحَةُ مَحارِمُ اللهِ وذلكَ الدّاعِي على رَأْسِ الصِّراطِ كتابُ اللهِ والدّاعِي من فَوْقَ الصِّراطِ واعِظُ اللهِ في قلبِ كلِّ مسلمٍ

ابن كثير (ت ٧٧٤)، تفسير القرآن ٤٣/١ • إسناده حسن صحيح •أخرجه الترمذي (٢٨٥٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٣٣)، وأحمد (١٧٦٣٤).

٦ عن عبدالله بن مسعود: خط رسول اللهِ ﷺ خطا بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيما قال: ثم خط عن يمينه وشماله ثم قال: هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل}=

=أحمد شاكر (ت ١٣٧٧)، مسند أحمد ١٩٩/٦ • إسناده صحيح •أخرجه أحمد (٤٤٣٧) واللفظ له، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٧٤)، والدارمي (٢٠٢).

النَّبي صلى اللهُ عليهِ وسلَّم قال في الحَديث: (إِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ) بمعنى أنَّك مُجرَّد أن تفتَح الستر المرخى... إذا أنت فكَّرْت أن تسير في الطَّريق ستجد الطَّريق مال بك.

مثال: أنت عندما تسير في طريق سفر، الطَّريق يأخذك ويميل يمينًا ويسارًا، أنت لست منتبهًا، تقول أنا أسير في طريق مُستَقيم من البداية، من يصف لك ماذا سيقول؟ ستأخذ هذا الطَّريق مباشرة لا تتجه لا إلى اليمين ولا إلى اليسار إلى أن تصل، حقيقةً الطَّريق الذي تسير فيه يميل بك يمينة ويسرة وأنت لا تشعر! هذه هي {فَتَفَرَّقَ بِكُم}، فمن الممكِن أنَّ الطَّريق يأخذك ويحيد بك وأنتَ لا تَشعُر، لذلِك لا بُدَّ من وضْع سِياج لهذا الطريق يجعلك تنتبه إذا خرجت من الطريق... هذه هي كُتُب العَقيدَة، المجهود الذي بَذَلُه أهل العِلْم لكي يضعوا السِّياج، هو السور الذي ينبهك!

انتبه!!! إياك أن يحيد بك الطَّريق... وكما أن على كل سبيل شيطان، كل ميلة يُقَيِّض الله عزَّ وجلَّ إمامًا يقف ويقول لك: انتبه!!! هذه ستُدخِلك على النَّصارى، هذه ستُدخِلك على اليَهود، وهذه ستُدخِلك على الإلحاد، وهذه ستُدخِلك على الشِّيعَة، وهكذا.

ابن عُمَر كان يلمح ذلك في أقوال الناس، يسمَع أحدهم فيقول له: أنت تنكر القَدَر... أنت من الخَوارِج... كان من سؤالِه يفهَم ما هي الفِكرَة الضَّالَّة التي عَندُه.

فيُقَيِّضُ الله عُلَماء يكونون كالسِياج للطَّريق، لأنَّه إذا تركت نفسك فالطَّريق قد يميل بك وأنت غير منتبه!

{فَتَفَرَّقَ بِكُم عَن سَبيلِهِ ذلِكُم وَصّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقونَ} يجب أن يكون هناك حذَر، التَّقوَى هيَ الحَذَر، يجب أن تكون التقوى في الختام..

الأولى العَقْل،

والثانية التَّذْكِرَة المستَمِرَّة،

والثالثة الحَذَر، أن يميل بنا الطّريق ونحن غير منتبهين.

نكتفي بهذا القَدْر، سُبحانَك اللهُمَّ وبِحَمْدِك، أشهدُ أن لا إله إلا أنتَ، أستَغْفِرُكَ وأتوبُ إليْك، وجزاكُمُ اللهُ خيرًا.